

٩

بنت قسطنطين

محمد سعيد العريان



بنت قسطنطين

تأليف

محمد سعيد العريان



بُنْتُ قُسْطَنْطِينِ

محمد سعيد العريان

رقم إيداع ١١٠٣٢ / ٢٠١٤
تمك: ٩٠٢٥ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨ رقم

مُؤسَّسَةُ هَنْدَوَى لِلْتَّعْلِيمِ وَالثَّقَافَةِ

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ لِلنَّاشرِ مُؤسَّسَةُ هَنْدَوَى لِلْتَّعْلِيمِ وَالثَّقَافَةِ
الْمُشْهُورَةِ بِرَقْمِ ٨٨٦٢ بِتَارِيخِ ٢٠١٢/٨/٢٦

إِنَّ مُؤسَّسَةَ هَنْدَوَى لِلْتَّعْلِيمِ وَالثَّقَافَةِ غَيْرُ مَسْؤُلَةٍ عَنْ آرَاءِ الْمُؤْلِفِ وَأَفْكَارِهِ
وَإِنَّمَا يَعْبُرُ الْكِتَابُ عَنْ آرَاءِ مَؤْلِفِهِ

٥٤ عَمَارَاتُ الْفَتْحِ، حَيِ السَّفَارَاتِ، مَدِينَةُ نَصْرٍ، ١١٤٧١، الْقَاهِرَةُ
جَمْهُورِيَّةُ مَصْرُ الْعَرَبِيَّةِ

تَلْيِيفُون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٢٥٢ فَاكِس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣

الْبَرَيدُ الْإِلْكْتَرُونِيُّ: Hindawi@Hindawi.org

الْمَوْقِعُ الْإِلْكْتَرُونِيُّ: http://www.Hindawi.org

تَصْمِيمُ الغَلَافِ: إِيهَابُ سَالِمٍ.

جَمِيعُ الْحَقُوقِ الْخَاصَّةِ بِصُورَةٍ وَتَصْمِيمِ الغَلَافِ مَحْفُوظَةٌ لِمُؤسَّسَةِ هَنْدَوَى
لِلْتَّعْلِيمِ وَالثَّقَافَةِ. جَمِيعُ الْحَقُوقِ الْأُخْرَى ذَاتِ الْصَّلَةِ بِهَذَا الْعَمَلِ خَاضِعَةٌ لِلْمُلْكِيَّةِ
الْعَامَّةِ.

Cover Artwork and Design Copyright © 2015 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

| | |
|-----|----------------------|
| ٧ | التمهيد |
| ١٣ | بنت قسطنطين |
| ١٥ | ١- حديث القاصٌ |
| ٢١ | ٢- عهد ونذر |
| ٢٥ | ٣- ابنة البطريق |
| ٢٩ | ٤- وَيُك مسلمة |
| ٣٣ | ٥- أمهات الملوك! |
| ٤١ | ٦- ولـي العهد |
| ٤٧ | ٧- راهب البلقاء |
| ٥٥ | ٨- بارقة أمل |
| ٦١ | ٩- نداء الدم |
| ٧١ | ١٠- قبر على الطريق |
| ٧٩ | ١١- لبّيك أباً أيوب! |
| ٨٧ | ١٢- وفاءً بذمة ... |
| ٩٣ | ١٣- نفير الحرب |
| ١٠١ | ١٤- على شاطئ البرزخ |
| ١٠٥ | ١٥- تميمة روميَّة! |
| ١٠٩ | ١٦- عرش يهتز ... |
| ١١٥ | ١٧- دسيسة العِرق ... |
| ١١٩ | ١٨- على حافة الموت |

بنت قسطنطين

١٩ - وفاء النذر

خاتمة

١٢٩

١٣١

التمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَعَتْ حَوَادِثُ هَذِهِ الْقَصَّةِ خَلَالِ النَّصْفِ الثَّانِيِّ مِنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ بَعْدِ الْهِجْرَةِ، وَالْحُكْمُ يُوْمَئِذٍ لِبَنِي أَمِيَّةَ، وَدِمْشِقُ عَاصِمَةُ الدُّولَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَظِيمِيَّةِ، وَجِيُوشُ الْفَتْحِ تُوَغِّلُ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَالشَّمَاءِ وَالْجَنُوبِ، وَالرُّقْعَةُ الْعَرَبِيَّةُ تُنْبَسِطُ كُلَّ يَوْمٍ أَمْيَالًا وَفَرَاسِخًا، وَالإِمْپَراَطُورِيَّاتُ الْعَرِيقَةُ تَتَهَاوِي إِمْپَراَطُورِيَّةً بَعْدَ إِمْپَراَطُورِيَّةٍ، وَالْأَبَاطِرَةُ الْمُتَّالِهُونَ يَخْرُونَ لِلْأَدْقَانِ سُجَّدًا؛ إِذَا لَا يُسْتَطِيعُونَ عَنِ الْأَنْفُسِهِمْ، وَلَا عَنْ حَوْلِهِمْ دَفَاعًا وَلَا مَقاوِمَةً ...
وَكَانَتِ الْخَطَّةُ الْعَرَبِيَّةُ يُوْمَئِذٍ أَنْ يَصِيرُ هَذَا الْبَحْرُ الْمُتَوَسِّطُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أُورُوباً —
وَكَانَ اسْمُهُ يُوْمَذاكَ بَحْرُ الرُّومِ — أَنْ يَصِيرُ بَحْرُ الْعَرَبِ، لَيْسَ عَلَى شَوَّاطِئِهِ الْفُوقَانِيَّةِ وَلَا التَّحْتَانِيَّةِ إِلَّا بَلَادُ عَرِيبَةٍ يَرْتَفِعُ فِيهَا الْأَذَانُ وَتُقَامُ الصلواتِ.

وَكَانَ الْجَيْشُ الْزَّاحِفُ فِي شَمَالِ إِفْرِيقِيَّةِ قَدْ فَتَحَ مِصْرَ، وَبِرْقَةَ وَمَا يَلِيهِمَا مِنْ بَلَادٍ
الْمَغْرِبِ حَتَّى بَلَغَ شَاطِئَيِّ الْمَحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ — وَهُوَ يُوْمَئِذٍ آخِرُ الدُّنْيَا مِنْ جَهَةِ الْغَرْبِ —
فَأَخْذَ يَتَطَلَّعُ إِلَى الشَّمَاءِ يَرِيدُ أَنْ يَثْبُتْ إِلَى أُورُوباً مِنْ نَحْوِ الْأَضِيقِ — مُضِيقِ جَبَلِ طَارِقِ —
— لِيُنْسَابَ مِنْ شَبَهِ جَزِيرَةِ أَيْبِرِيَا إِلَى أَرْضِ إِفْرِنَسَةِ وَرُومِيَّةِ .

وَكَانَتِ جِيُوشُ عَرِيبَةِ أُخْرَى فِي الْمَشْرُقِ قَدْ طَهَّرَتْ ثُغُورَ الشَّامِ مِنْ بَقَايَا الرُّومِ،
وَأَبْطَلَتْ مَقَاوِمَتَهُمْ، ثُمَّ مَضَتْ زَاهِفَةً، فَاخْتَرَقَتْ شَبَهَ جَزِيرَةِ الْأَنَاضُولِ، وَعَسَكَرَتْ تَحْتَ
أَسْوَارِ بِيزِنْطَنَةَ — الْقُسْطَنْطِنْيَّةَ — عَاصِمَةِ الدُّولَةِ الْرُومَانِيَّةِ الشَّرِقِيَّةِ، تَرِيدُ أَنْ تَثْبُتْ إِلَيْهَا
فَتَمْلِكُهَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَثْبُتْ فِيهِ جِيُوشُ الْمَغْرِبِ إِلَى شَبَهِ جَزِيرَةِ أَيْبِرِيَا، ثُمَّ يَمْضِي الْجَيْشَانُ
مَشْرُقِينَ وَمَغْرِبِينَ، حَتَّى يَلْتَقِيَا فِي الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ، أَرْضِ رُومِيَّةِ، عَاصِمَةِ الدُّولَةِ الْرُومَانِيَّةِ

الغربيّة، وبذلك تخلص أوروبا للعرب، ويصير بحر الروم بحيرة عربية، فليس ثمة إسبانيا، ولا إفرنسة، ولا الإمبراطوريّة الرومانية ...

وكانت الخطة ماضية إلى غايتها بلا رِيْث، فما تزال الأنباء تتواли على عاصمة العرب، كل مشرق صبح ومغرب شمس، بما أفاء الله عليهم من الفتح والنصر في كل جبهة من جبهات القتال، فملك العرب شبه جزيرة الأندلس، وأزالوا عنها مُلُك إسبانيا والبرتغال، ووَبَشُّروا إلى فرنسا، فاحتلوا من جنوبها بلادًا على الشاطيء، وجهروا فيها بالأذان وأقاموا الصلوات ...

وأحرزت جيوش المشرق على الروم نصرًا بعد نصر، فاختارت شبه جزيرة الأناضول، ونفذت منها إلى البحر الأسود، فعسكرت على شواطئه، وصارت القسْطنطينيَّة على مرمى السهم ...

وجاءت الأنباء من تركستان والعجم، ومن الهند والصين، ومن بلاد الحبش والزنج، بما فتح الله على العرب من تلك الأصقاع البعيدة الشاسعة المتaramية الأطراف.

كل ذلك ولم يمض على العرب منذ هاجروا بدينيهم إلى الله، غير بضع عشرات من السنين لا تبلغ تمام القرن.

وكان لهذه الفتوح آثارها في المجتمع العربي بدمشق وغير دمشق من العواصم العربية، فتفتحت عيون العرب على ألوان من الترف وفنون من الحضارة لم يكن لهم بها عهد ...

وكان من آثارها أنَّ كثُرَ الأُسَارِيَّ والسَّبَايا في أيدي المقاتلين العرب، فانتقلوا بهم إلى الحواضر العربيَّة، فمنهم من وَالَّى العرب وأمن بدينيهم، واندمج في المجتمع العربي، وعاش بين العرب مولًى من مواليهم ينتمي إليهم ولا يُحْسَب منهم، ومنهم من انتقل من أيدي المقاتلين إلى سوق الرقيق، يشتري للعمل والمهنة، أو للتكثُّر بالأتياع ...

وكان من أولئك الأُسَارِيَّ بعض أبناء السادة والقادة والأُمَّراء في بلادهم، وكان لهم ثقافة ومهارات وفنون، فبرزوا في المجتمع العربي بفنونهم ومهاراتهم وثقافتهم، وذاع لهم جاه وصيت، واكتسبوا مالًا وحظوة، ولكنهم لم يبلغوا في المجتمع العربي لعهد الدولة الأموية منزلة العربي الأصيل؛ إذ كانت تلك الدولة تؤمن بالعرق والنسب.

وكان بين السَّبَايا من بنات الأمم المغلوبة ذات ثقافة وفنون ومهارات كذلك، أو ذات ملاحة ودلال وفتنة، أو ذات حسب ونسب و Mage؛ فأغْرَى كل أولئك — أو بعضُه — رجالًا من العرب باتخاذ زوجات منهن أو وصائف وحظايا ...

وكثُرت الزوجات والحظايات من بنات الفُرس والروم والترك والإسبان والصقالبة، وغيرهم في بيوت أمراء العرب، وفي بيوت السوقية كذلك، وولدن لهم بنين وبنات من ذوي النجابة والفطنة والعزم، أو من ذوات الحُسْن المطعَّم، وكان أولادهن هؤلاء من قومهم في منزلة وُسطى بين منزلة العرب الخَلُص ومنزلة المولى؛ إذ كانوا هُجناء قد اخْتَلَطَ في أُعراقيْم دُمْ عَرَبِيْ بِدِمْ غَير عَرَبِيْ.

كذلك كان المجتمع العربي في السنين التي وقعت فيها حوادث هذه القصة، وتلك كانت سماته وللامتحان العامة ...

وتبدأ القصة في مسجد «الرَّقَّة» — وهي بلد من بلاد الجزيرة على شاطيء الفرات — حيث جلس قاصُّ من قُصَاصِ الدولة إلى سارية من سواري المسجد، يتحدث إلى أهل حلقته حديثاً يشوقُهُمْ به إلى الجهاد، ويُحِبِّبُ إليهم أنْ ينتظموها في صفوف الجيوش الغازية في الشرق أو في الغرب ...

وكان مثل هذا القاص في عهد الدولة الأموية شأن وأثر، فهي قد ابتدعت هذه الوظيفة، واختارت لها طائفة من العارفين بالسَّيَر وأخبار المغازي والفتح، تأجّرهم على ما يقصُّون من قصص في مساجد الأمصار، بقدر ما يتكونون من أثر في سامعيهم؛ ليُسَارِعوا إلى التطوع في الجيوش الغازية، أو يكونوا حزباً لل الخليفة، فكان أولئك القُصَاص يَقْوِمون في وقتهم ذاك بمثل مهمة صحف الدعاية، ومكاتب الاستعلامات في هذه الأيام ... ولعل الدولة الأموية بابتداعها لهذه الوظيفة، كانت أسبق الدول إلى الأخذ بهذا المذهب، الذي يهدف إلى توثيق صلة الحكومة بالجماهير، وكسب تأييدهم فيما تحاول من تدبير سياسي في الداخل أو في الخارج، وهو مذهب له اليوم في السياسات العامة شأن كبير، ولعلها — إلى ذلك — كانت أول دولة عرفت أثر القصص في النفوذ إلى نفوس الجماهير، فاستخدمت هؤلاء القُصَاص؛ لتنفيذ مهمتها، إذ كانت تشعر أنها بإزار منافسة قوية على العرش، يحمل رايتها بنو هاشم، من آل أبي طالب وآل العباس، الأَحِبَّاءِ إلى قلوب الجماهير لقربتهم القريبة من النبي ...

على أنَّ أحاديث هؤلاء القُصَاص في حلقاتهم تلك لم تكن قصصاً بالمعنى الفني، الذي نفهمه في هذه الأيام من كلمة «قصص»، وإنما هي أخبار وروايات تتدااعى لمناسبتها، وتتساقق لإحداث الانفعال والتحميس والسموّ بالروح المعنوية للشعب، ولكنها برغم ذلك نوع من القصص على غير قاعدة من قواعد ذلك الفن ...

وتمضي القصة من حيث بدأت في حلقة ذلك القاص بمسجد الرّقة، حتى تنتهي إلى غاية من غaiات كل قصة، تتفاعل فيها نفوس البشر بالعواطف المتناقضة التي تنشئها في نفوس أبطالها ظروف المجتمع الذي يعيشون فيه ... وقد عرفنا في بعض ما مضى من هذا التمهيد بعض ملامح هذا المجتمع، الذي وقعت فيه حوادث هذه القصة ...

المجتمع الذي ينتظم عرباً خالصي النسب، قد جعلهم دستور الحكم طبقة فوق الناس، وموالي لهم في العرب نسب، ولكن لهم على كل عربي حق الولاء، ولهم في نفوسهم ذكريات عميقة لماضٍ بعيد، وهجناه يمتنون إلى العرب بنسب، وإلى عدوّ العرب بنسب، فلهم أسرة هنا وأسرة هناك، وال الحرب لم تزل ناشبة بين الأسرتين ... وفي كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث، التي ينتظمها المجتمع رجال ونساء ... رجال من طبقات ثلاثة، ونساء من طبقات ثلاثة كذلك، وللمجتمع الذي يعيشون فيه دستور، وللعواطف الإنسانية دستور آخر فوق دساتير الناس ...

بهذه العواطف المتناقضة تفاعلت حوادث هذه القصة، ورجلها الأول هو مسلمة بن عبد الملك، أبوه الخليفة عبد الملك بن مروان، ولدته له سبيّة من سبايا الروم، فلما كبر حمل راية العرب في وجه الروم، وتحت رايته هذه رجال من الطبقات الثلاث، ووراء كل رجل منهم امرأة؛ زوجة أو أم، من إحدى طبقات ثلاثة كذلك، وفي قلب كل أمّ أو زوجة منهن ذكريات قديمة، وعواطف جديدة، وأمال مرتبة ...

ذلك هو الجو الإنساني لهذه القصة، ولست أريد أن أصفه أكثر مما وصفت؛ لتبقى للقصة قوة التشويق، أما جوها التاريخي فيصف خطأ العرب في زحفهم إلى القسطنطينية – عاصمة الروم – في القرن الأول، وهم قد بلغوا في زحفهم ذاك مبلغاً، كان خليقاً بأن ينتهي بنصرٍ عظيم، ولكنهم تراجعوا والثمرة دانية، فلماذا؟ ... ولكنني لا أريد كذلك أن أجيب الآن؛ لتبقى للقصة كذلك قوة التشويق ...

أما بعد، فإن في هذه القصة صورة من كفاح العرب في تاريخ مضى؛ لتبليغ رسالة، وتحقيق سيادة، وإنهم ليكافحون اليوم كفاحاً من نوع آخر؛ لتبليغ رسالة، وتحقيق سيادة، وردّ عدوان، فما أحراهم في مرحلة كفاحهم الحاضر أن يتذمروا بعض ما مضى من فضول ذلك التاريخ ...



بنت قسطنطين

قصة تاريخية

معركة ... بدأت منذ ألف وثلاثمائة سنة، وما تزال حتى اليوم ناشبة ...
الذَّرَّاتُ التي نفَضَّتها رمال الجزيرة العربية على أرض البشر منذ ارتجت بتلك الزلزلة
الْعَظِيمِ، لم يزل فيها من قوة الاشتعمال ببروق وصواعق ...
لهداية البشرية الضالة، زحفت هذه الجحافل من المشرق — منذ التاريخ البعيد —
ولم تزل حتى اليوم تناضل ...
الحرب سجال ... ولكن العاقبة لنا!

الفصل الأول

حديث القاصٌ^١

فرغ الناس في مسجد الرقة^٢ من صلاة العشاء الآخرة، فتنقلوا^٣ ما طاب لهم التنفُّل، ثم دَلَّفُوا^٤ إلى حيث كان أبو داود الحمْصيُّ مستندًا إلى سارية من سواري المسجد، يقصُّ القَصص، ويُرْغِب في الجهاد، ويروي من أنباء المغازي والفتوح ما يُحْمِس الجبان، ويشدُّ العزم، ويستلبُ أباب الشيوخ وقلوب الشباب ...

وكان أبو داود هذا قاصًاً واسعَ الرواية، عذبَ الحديث، لطيفَ الإشارة، قد تتبَّعَ أنباء المغازي والفتوح منذ أول عهد العرب بالفتح، فأتقنها حفظًا وروايةً، وتمثيلًا بالقول والإشارة ونَبَرَ الصوت، حتى ليحسبُ كُلُّ من سمعه يقُصُّ أنه شَهِدَ بعينيه، وشارك بسيفه في كل معركة من معارك الفتح، فلم يتخلَّفْ عن واحدة!

وكان رجلاً في الأربعين، لم يطعن في السن، ولم تُثُقل كاهله السنون، قصيراً بطيئاً مُعتجِر العمامة، قد أرسل لحيَّةً تضرب أطرافها على بطنه، فما يراه أحد في منظره ذاك، ويستمع إلى حديثه مُسْنِداً إلى الرواة من أبطال الفتح، إلَّا ظنَّه شيخاً عميقَ الجُذُر، بعيداً

^١ انظر التمهيد.

^٢ الرقة: بلد من بلاد الجزيرة، على شاطئ الفرات.

^٣ تنقلوا: صلوا النوافل، وهي ما بعد الفريضة من ركعات السنة.

^٤ دَلَّفُوا: مشوا بخشوع.

المولد والدار، إلَّا تكن له صحبةٌ أو هجرة، فإنه لا بُدَّ قد عاصَرَ وغَزَا واستظلَّ في معارك الفتح بلواء الفوج الأول!

وكان عظيم القدر عند أمراء بنى أمية في الشام، فهو جليسهم وجارهم ما أقام بدمشق، فإذا بدت له الرحالة إلى أي بلد من بلاد الإسلام، لم تزل صلاتُهم وعطاياهم تَرُدُ عليه حيث كان، على أنَّ أمير المؤمنين عبد الملك^٥ كان أكثرهم عطفًا عليه وصلاتٍ إليه، وكان يقول له: لسنا نحاول اصطناعك بهذا يا أبا داود، بل أنت اصطنعتنا بخالص ولائك وكريم بلاك؛ لنُصرة بنى مروان ...

وتکامت الحلة، وأخذ أبو داود يتنقل بالناس في قصصه من فن إلى فن، ومن وادٍ إلى وادٍ، فهو حيًّا في البر، وحيًّا في البحر، وطورًا على ظهر الباردة، وتارة في ظل حصن من حصون الروم، في المغرب أو في المشرق، وأونتها في سهول الجزيرة، وفيافي العراق يصف كيد الخوارج^٦ وتطاُحُنِ الفرق ... ثم قال:^٧

ضلَّ من فتنته دنياه عن دينه، وشغلته أولاه عن آخرته، وأذله الشيطان فأذله،
 وأنطعمه السلطان فأضرعه! ...^٨ ألا إنَّ قومًا في بعض الأمصار — غفر الله
لهم — قد زُيَّن لهم الباطل، فشرعوا سيوفهم لحرب أمير المؤمنين، يأبون —
بزعمهم — أنْ تكون هرقلية^٩ يتوارثها خلفٌ عن سلف، فهلاً شرعوا سيوفهم
هذه لحرب هرقل، ودكَّ معاقل الكفر في بلاده، ونشر دين الله في الأرض ...

^٥ عبد الملك بن مروان: من خلفاء الدولة الأموية، وأبوه مروان بن الحكم، رأس الدولة المروانية، فرع من بنى أمية ...

^٦ الخوارج: فرقة من المسلمين، خرجوا على طاعة علي بن أبي طالب، وحاربوا بنى أمية، وكان لهم شأن في تاريخ الإسلام.

^٧ نموذج من أحاديث القصاص.

^٨ أضرعه: أذله وأخضشه.

^٩ هرقلية: نسبة إلى «هرقل»: من ملوك الروم؛ أي ملوكية وراثية.

وصمت أبو داود برهة، ثم رفع عينيه يجول بهما فيمن حوله، وهو يخلل لحيته بأصابعه، ثم استأنف حديثه:

حدثنا نصر بن عوانة — وكان في جيش عقبة بن نافع^{١٠} بال المغرب — قال: لقد رأيت عقبة، وقد بلغ بجيشه شاطيء الأقيانوس الأخضر^{١١}، فيدفع حصانه إلى البحر، ويقول بحماسة: اللهم رب محمد، لو لا أني لا أعلم وراء هذا البحر يابسة، لاقتحمت هذا الهول المائي؛ لأنشر اسمك المجيد في أقصى حدود الدنيا! رحم الله عقبة، وأين مثل عقبة؟! فإن قسطنطين بن هرقل ما يزال وراء هذه الحدود المتاخمة، يتهدد أصحابنا بالغارقة بعد الغارة بِرًا وبَحْرًا، فهلّا خرجنا إليه؛ لننشر اسم الله المجيد في أقصى بلاد الروم! ضلّ من جعل إلهه هواه! ألا إنه لو لا ابن هرقل على هذه التخوم لما صارت — بزعمهم — هرقلية.

وتلبّث القاص برهة أخرى، ثم استأنف:

لقد كان معاوية^{١٢} وكان ابنته يزيد^{١٣} وكان مروان^{١٤} ثم كان أمير المؤمنين عبد الملك ... كأنما لم تمض تلك السنون، وكأنني أرى الساعة، وأسمع تكبير جند الشام يقودهم يزيد بن أمير المؤمنين^{١٥} وفيهم ابن عباس^{١٦} وابن عمر^{١٧}

^{١٠} عقبة بن نافع: قائد جيش الفتح في شمال إفريقيـة، وإليه فضل الفتح في تلك الأصقاع.
^{١١} الأقيانوس الأخضر: المحيط الأطلسي، وكان يسمى أيضًا بحر الظلمات، وكانوا يعتقدون أن لا أرض وراءه؛ لأن أمريكا لم تستكشف إلا بعد ذلك بقرنون.

^{١٢} معاوية بن أبي سفيان: رأس الدولة الأموية.

^{١٣} ويزيد بن معاوية: كان خليفة بعد أبيه.

^{١٤} ومروان بن الحكم: رأس الدولة المروانية، من فروعبني أمية، وعبد الملك ولده.
^{١٥} كان يزيد بن معاوية على رأس غزوة بحرية في عهد أبيه، تُعرف باسم غزوة «ذات الصواري»؛ لكثرـة ما كان فيها من السفن التي ازدحـمت صوارـيها على الماء.

^{١٦} هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي.

^{١٧} هو عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وابن الزبير،^{١٨} وأبو أيوب الأنباري^{١٩} جار رسول الله، ومُضيقه في دار هجرته، قد ركبوا في عشرات الآلاف من الجند، تُقلِّهم سبعمائة وألف سفينة، قد صنعواها معاوية بعينيه من أرز هذه الغابات الكثيفة في جبال لبنان،^{٢٠} ثم أرسلها في البحر لحرب الروم، تغزو بلادهم، وتدرك حصونهم، وتملك جزائرهم في البحر، وتأخذ عليهم طريقهم في البر، وتطوّق مدinetهم هذه التي بناها قسطنطين الأول،^{٢١} واتخذها قاعدة لملكه، فما يزالون على حصارها سنين ذات عدد، لا يصدر منها ولا يرد إليها، حتى يبلغ الجهد بقسطنطين وأهل ملّته ما يبلغ، فيعطي الجزية صاغراً... ويعود المسلمون ظافرين، لم يتخلّف من رؤسائهم غير أبي أيوب، قد دُفِن عند سور القسطنطينية كما وعده رسول الله!^{٢٢}

رَدَّ اللَّهُ غَرْبَتِكَ يَا أَبَا أَيُوب! مُضِيفُ رَسُولِ اللَّهِ أَوَّلَ هَجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، قَدْ شَوَّى^{٢٣} تَحْتَ أَسْوَارِ الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ ضِيقاً عَلَى أَهْلِ الْكُفَّارِ!

يَا أَبْنَاءَ الْمَاهِجِرِينَ مِنْ ضِيَوْفِ أَبِي أَيُوبِ، يَا أَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ مِنْ صَاحِبَتِهِ، إِنَّ أَبَا أَيُوبَ لَمْ يَذْلِ كَرِيمًا كَعهْدِكُمْ بِهِ، فَهَا جَرَوا إِلَيْهِ يُضِيقُوكُمْ فِي دَارِهِ الْجَدِيدَةِ، كَمَا ضَيَّقَ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّداً مِنْذَ سَنِينَ سَلْفَتِهِ.^٤

^{١٨} هو عبد الله بن الزبير، وأمه أسماء بنت أبي بكر.

^{١٩} كان أبو أيوب أنصارياً من أهل المدينة، وحين هاجر النبي إلى المدينة نزل بداره، فكان يُسمَّى «جار رسول الله»، وسيذكر ذكره كثيراً في بعض ما يلي من فصول هذه القصة.

^{٢٠} لم تزل جبال لبنان مشهورة بشجر الأرز، ولخشبها خصائص ليست في خشب غيره.

^{٢١} القسطنطينية: مدينة أوروبية عند مضيق غلبيولي، كانت عاصمة للدولة الرومانية الشرقية، وهي اليوم مدينة تركية، بناتها الإمبراطور قسطنطين الأول، وإليه تُنسب، وتُسمى كذلك «بيزنطه»، وهي نفسها «الأستانة» و«إسطنبول»، أو «إسلامبول»، كما كانت تُسمى بعد الفتح العثماني.

^{٢٢} جاء في بعض الخبر أنَّ النَّبِيَّ ﷺ وعد أبو أيوب أنْ يموت مهارِبًا في ثُورِ من ثُورِ الكفار، وبه يُدْفَنُ، وكان أبو أيوب سعيداً بهذه الموعدة، حرِيصاً على أنْ تتحقق، وبسييل حرصه على تحقيقها كان تطوعه – وهو شيخ كبير – للمشاركة في كل غزوة بحرية، حتى أدركته الشهادة في تلك الغزوة، فُدُفِنَ تحت أسوار القسطنطينية، ولم يزل قبره معروفاً هناك حتى اليوم، ومنذ كان، باسم: مسجد الشيخ الصالح!

^{٢٣} شوى: رقد.

^٤ إشارة إلى ضيافته للنبي أول قدومه إلى المدينة.

هتف عتبة بن عبيد الله، وقد مسَّ حديثُ الشِّيخ شغاف قلبه: لَبِّيك أباً أَيُوب.
فضحَّ المجلس وراءه بالتلبية ...

ذلك شأن القاصُّ أبْي داود، وذلك شأن الناس معه؛ ما يزال يتنقل بين الأمصار، يدعو إلى الجماعة،^{٢٥} أو يدعو إلى جهاد أهل الشرك، فيستجيب له من يستجيب، ويُلْبِي من يلْبِي.

ولكن الفتنة التي نشبت بين أهل القرآن منذ سنين لم تُطفأ بعد؛ فما يزال في كل بلد داعٍ يدعو لنفسه، ويؤازره من المسلمين طائفة، فأمير المؤمنين في الحجاز وما والاها عبد الله بن الزبير، وأمير المؤمنين في الشام عبد الملك بن مروان، وما يزال في الجزيرة والكوفة، وما وراءها من أرض المشرق داعٍ أو دعاة، يهتفون باسم أمير منبني علي بن أبي طالب،^{٢٦} وفي دمشق نفسها لم يزل واحد أو أكثر من السفيانية^{٢٧} أو غيرهم من فروعبني أمية، ينفس^{٢٨} علىبني مروان أن تكون الخلافة فيهم ... وعبد الملك يحاول أن يوطئه لنفسه بين هذه الزعزع،^{٢٩} مما ينفكُ متذللاً على رأس جيشه من مصر إلى مصر،^{٣٠} مكافحاً صابراً قد استحلَّ سفك الدم في سبيل توطيد العرش، وتوطئة الأكنااف لبني مروان، وكان قبل أن يليها شيئاً من أهل الرأي^{٣١} لا يكاد يفارق مسجد رسول الله في المدينة، أو يدعُ المصحف!

وحلَّت سنة ٧٠ من الهجرة، وما تزال الفتنة ناشبة، وكان الروم قد انحرسروا عن أرض المشرق، فليس لهم في الشام باع ولا ذراع، ولكنهم منذ جلووا عن أرض المشرق، لم تزل

^{٢٥} وحدة الرأي وتأييد الخليفة القائم، وانظر التمهيد.

^{٢٦} كان فريق من المسلمين — ولعله الكثرة — يرى علياً وبنيه أحق بالخلافة من معاوية وبني أمية.

^{٢٧} السفيانية: أولاد أبي سفيان، وكانت الخلافة فيهم منذ معاوية، حتى ولها مروان بن الحكم، فتسلاست في بنيه إلى آخر الدولة.

^{٢٨} يرى أن ينافسبني مروان في الخلافة.

^{٢٩} الزعزع: الأعاصير.

^{٣٠} من بلد إلى بلد، والمصر هو البلد المتحضر.

^{٣١} أهل الرأي: هم الفقهاء وأصحاب الفتوى، وكان عبد الملك منهم قبل أن يرث عرش أبيه.

بنت قُسطنطين

أنفسهم تُنازعهم إلى استرداد ما فقدوا من تلك الأرض الواسعة الخصبة، فكأنما انتهوا هذه الفتنة الناشبة، فسَرَّوا جيوشهم إلى أنطاكية^{٣٢} فحاصروها، ثم وضعوا أقدامهم وأوغلوا في البلاد.

^{٣٢} أنطاكية: ثغر من ثغور الشام – ويسمى الإسكندرونة – كان إلى قرب جزءاً من سوريا، ثم اغتصبته تركيا، ففعلت بأهله ما فعل الصهيونيون بأهل فلسطين!

الفصل الثاني

عهد ونذر

كان النعمان بن عبد الله يدندن بيّتاً من الشعر:

أَرْوُحُ إِلَى الْقُصَاصِ كُلَّ عَشَيَّةٍ
أَرْجِي ثوابَ اللَّهِ فِي عَدْ الْخُطَا

حين ابتدره أخوه عتبة: قد مسَّ والله حديثُ أبي داود القاص شغاف نفسي، وما أرى هذه الفتنة الناشبة في الأمسكار إلاَّ كيداً من الشيطان؛ لتفريق الجماعة، وصدع الجبهة، والتمكين للمشركين كي ينالوا مناً منالهم، وإنَّ هؤلاء الخارج ليزعمون أنهم يدعون إلى الله، ويُعقلون بما وراء ذلك العصيان من تفريق الكلمة ووهن المسلمين، ولو أنَّ هذه الجموع المسلمة التي تُسايق كل يوم إلى المذابح بالأيدي المسلمة، قد سقطت صوائفٍ وشواتيٍ^١ إلى بلاد الروم، لرجوت أن تكون القسطنطينية بأيدينا، وينزل المسلمون ضيوفاً على أبي أيوب ...
ثم استطرد قائلاً في عزم: وإنني قد رأيت يا نعمان رأياً أرجو أن تمضي فيه معى ...^٢

^١ الصوائف: عزوات الصيف، والشواتي: غزوَات الشتاء، وكان للعرب صوائف وشواطٍ متتابعة على الروم – في البر والبحر – منذ فتحوا الشام إلى أنْ تقلص ظل الروم عن تلك الأقصاع.

^٢ انظر التعليق رقم (١٩) الفصل الأول.

قال النعمان مستدركاً: دَعْ عنك ما رأيت يا أخي، وأَعِدْ علىَ ما قلت: أَزعمتَ – وَيُحَكَّ – أَنَّ ابن مروان أَحَقُّ بها من عِتْرَةِ مُحَمَّدٍ،^٣ ومن ابن ذات النطاقين؟^٤ لقد مات أبوك إذن على ضلال يا عتبة،^٥ فقد علمتَ ما أَبْلَى أبوك يوم الجمل،^٦ وفي حرب صِفَنِين،^٧ ومعركة الطَّفِّ،^٨ فلم يقعد عن الحرب حتى استُشْهِدَ مع المختار ابن أبي عبيد طلبًا لثَّارِ الْحُسْنَى،^٩ أَفَهَا تَعْنِي حين تذَكُّرُ صَدْعَ الجَبَّةِ وَوَهَنَ الْمُسْلِمِينَ؟^{١٠}

صمت عتبة برهة مفكراً، ثم رفع رأسه يقول: ما هذا عَنِّيْتُ يا أخي، ولقد اجتهد أبي ما اجتهد لصلاح هذه الأُمَّة، حتى ذهب إلى ربه راضياً مرضياً، وإنني لأرجو أنْ يقبل الله شهادته،^{١١} ولكن نفسي لا تطيب بأن أحارب إخوانني في الدين، وأداع هؤلاء الروم حتى يطئوا من بلادنا كُلَّ موطئ، ويستَرْقُوا^{١٢} الحرائر والولدان من نسائنا وبنينا، فسأطلب منذ الغد إلى مسلمة بن عبد الملك^{١٣} أنْ يُغَزِّينِي في صائفته، لعلي أَنْ أُدرك نصراً أو أجاور أباً أيوب.

^٣ عترة محمد: الله منبني علي بن أبي طالب؛ لأنَّ أمهم فاطمة بنت محمد.
^٤ ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر، وولدها عبد الله بن الزبير، وكان يطلب الخلافة لنفسه فانهزم وُقتُلَ، وسُمِّيَتْ أسماء ذات النطاقين؛ لأنَّ لها قصة يوم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ومعه أبو بكر أبوها، إذ كانت تغدو عليهما في الغار بالطعام، تجعله في نطاقيها بعد أنْ شَقَّتْه شقتين؛ فسماها النبي ذات النطاقين.

^٥ يشير إلى أنَّ أباهما مات، وهو يحارب في صف الهاشميين.

^٦ يوم الجمل: وقعة كانت بين علي بن أبي طالب وبعض المخالفين له، وكان بينهم «عائشة» زوج النبي، وكانت تركب جملًا في هذه الموقعة، فسُمِّيَتْ موقعة الجمل، أو يوم الجمل.

^٧ صفين: مكان قريب من الرقة، على شاطيء الفرات، كانت فيه موقعة أخرى بين علي ومعاوية.

^٨ والطف: موقع قرب الكوفة، كانت فيه موقعة ثالثة.

^٩ المختار بن أبي عبيد: محارب من أهل الفتنة، ثار في وجه الدولة الأموية باسم الثَّارِ للحسين بن علي – وكان أتباع يزيد بن معاوية قد قتلوا في مجردة وحشية، لم يُسمع بمثلها – ثم ذهب المختار بعد ذلك في الضلال مذاهب أخرى ...

^{١٠} استشهاده.

^{١١} الاسترقاق: الأسر، أو السبي.

^{١٢} مسلمة: أرشد أولاد عبد الملك، وكانت إليه قيادة الصوائف والشواتي لحرب الروم، وسيذكر ذكره فيما يلي من فصول القصة.

ولكن مسلمة بن عبد الملك لم يخرج في هذا الموسم لحرب الروم صائفاً ولا شاتياً، فقد كان عبد الملك من أصالة الرأي وحسن التدبير، بحيث رأى مُصانعة^{١٣} جوستينيان الثاني قيصر الروم خيراً له في هذه الفترة التي تعصف فيها العواصف بالدولة الإسلامية، فصالحة على أن يؤدي إليه في كل جمعة ألف دينار؛ ليفرغ لتدمير قوة ابن الزبير، ويحطم الخوارج، ويرد كيد ابن عمه عمرو بن سعيد ...^{١٤}

وهدأت أمواج البحر، وسكن غبار الباية،^{١٥} ولكن عتبة بن عبيد الله لم يَعُدْ إلى داره بالرقة منذ كان ذلك الحديث بينه وبين أخيه النعمان، ولم يقف له أحد على خبر. وطال الانتظار بأهله حتى آب كل غائب، ولكنه لم يَؤْبَ، وهدأت الفتنة في الدولة الإسلامية أو كادت، وانقضى أمر ابن الزبير، وأغتيل عمرو بن سعيد منافس عبد الملك على عرشبني مروان، واستتب لهم الملك، وعادت الصوائف والشواعي تغدو وتروح في البر والبحر، تغزو بلاد الروم فتصيب منها ما تصيب ثم تئوب، ولم يَؤْبَ عتبة بن عبيد الله!

وقال جيرانه وأهله: يرحمه الله، لقد آثر جوار أبي أيوب المضياف، فمات غازياً في بلاد الروم.

وبكت أمه ما شاءت، ثم فاءت^{١٦} إلى الرضا بقضاء الله.
وخلعت امرأته أحمرها وأبيضها ولبست الحداد، ولزمت دارها ترأّم^{١٧} طفلاً في حجرها، وطفلة في بطنهما.

وقال أخوه النعمان لنفسه متأسياً: ^{١٨}نعم العزاء الصبر في الغازي الشهيد الغريب المُطْفِل.^{١٩}

^{١٣} المصانعة: التقرُّب والتلامس المودة.

^{١٤} عمرو بن سعيد بن العاص: من سادةبني أمية، وكان له مطعم في الوصول إلى الخلافة، فاحتال عليه عبد الملك، فقتله ليتَّقي شر الفتنة.

^{١٥} لا حرب في البحر ولا في الباية.

^{١٦} فاءت: عادت.

^{١٧} ترأّم: تحنو وتعطف.

^{١٨} مُعزِّياً نفسه.

^{١٩} المُطْفِل: أبو الأطفال.

بنت قُسطنطين

وأقسم لا يدع السيف حتى يلحق بأخيه أو يُدرك ثأره، ولا يكون ثأره إلَّا بطريقًا من بطارقة الروم.^{٢٠}

وأخذ النعمان أهبه منذ ذلك اليوم للبر بما أقسم.

وتتابعت الصوائف والشواتي في البر والبحر لغزو الروم، فلم يتخلَّف النعمان بن عبيد الله في صيفٍ ولا شتاء عن دعوة الجهاد.

٢٠ زعيم من زعمائهم.

الفصل الثالث

ابنة الطريق

لم يطيب الروم نفساً بسياسة القيصر جوستينيان الثاني، ونقموا منه^١ أنْ ضيَّع عليهم الفرصة المتاحة لاسترداد سواحل الشام في سنة ٧٠ للهجرة، بعدهما وطئتها أقدامهم، وقاربوا أنْ يملكونها ويُوغلوا في بلاد العرب، لا يكاد يدافعون أحدٌ من جند الخليفة المنهوك القوة في قمع الفتنة الناشبة في الأمسار الإسلامية، لقد كان عبد الملك أعرف بنفس هذا القيصر وأسدَ منه سياسة، فطلب إليه الصلح على مالٍ يؤديه إلى الروم كلَّ جماعة، فتحلَّبَ لُعبُ القيصر إلى ذهب بنى مروان، وأجاب الخليفة إلى ما طلب، ولكنه لم يَتَعَمَّ بهذا السَّلْمَ الذهبي طويلاً، فما هو إلَّا أنْ فرغ عبد الملك مما كان فيه حتى منع القيصر ما كان يؤدِّي إليه من مال، وجَهَّزَ الجنَّدَ في البر والبحر صائفة وشاتية للغارة على التُّغور الرومية ...

وكان قادةُ جيش الروم أشدَّ سخطاً على القيصر لهذه الخيبة، فثاروا به وقبضوا عليه، فجذعوا أنفه^٢ ونفوه إلى بلاد القرىء، ثم راحوا يتنازعون العرش فيما بينهم، فيليونه قائداً بعد قائد، وقيصراً في منفاه مجدهم الأنف، منكسر النفس، لا يكاد يملك لنفسه أمراً، والصوائف العربية ما تزال تُغيَّر على التُّغور والسوائل، فتصيب من الروم مقاتلَ، وتحمل أُساري وسبايا وولدانًا ...^٣

^١ غضبوا عليه.

^٢ قطعوا أنفه.

^٣ السبايا: جمع سبيّة؛ وهي المأسورة، والولدان: الأطفال المأسورون.

وكان البطريق قسطنطين على ثغرٍ من تلك التغور التي تُشرف على الخليج مما يلي القسطنطينية، ما يزال يستقبل كل صيفٍ غرّة من العرب يُناوشهم ويناوشونه، فينال منهم حيناً وينالون منه، ويصيب منهم أسرى وقتلى ويصيّبون، وكان له عند العرب تِراتٌ^٤ وتاريخ بعيد، وقد اصططع في الحرب حُطة عربية، فهو يخرج إلى لقائهم — حين يخرج — ومعه نساوئه وراء الصفوف، يهزّجَنَ بالأغانى للتحميس، ويضرّبن الفارّين في وجوههم بالعُدم، أو يحصّبُنَم بالحصى؛ ليُرددُنَم إلى الحرب^٥، وقد أيقن قسطنطين البطريق أنه إلّا يدفع عن نفسه وعن ثغره، فلن يدفع عنه أحدٌ من الروم الذين توَزَّعُتُم المطامع، وفتَّ في أعضادهم ما لفُوا من الهزائم المتالية في حرب العرب، وعلى هذا اليقين رابطاً في ذلك التغر مدافعاً شديداً العزم والقوة سنين طويلة.

وفجّأتهم ذات مساءٍ سريّةً من سرايا العرب^٦، قد هبّت في جُنح الليل على الساحل، ثم أوغلت حتى طرقت القوم في بيوتهم على حين غفلة، فأعجلّتهم عنأخذ الأبهة، والتجمّعوا أجساداً لأجساد، يتجلّدون بالسيوف أو يتصارعون بالأيدي، لا يكادون يتعارفون في ظلام الليل إلّا بالتكبير والتلبية^٧، وكان شعار المسلمين يومئذ: الله أكبر، لبيك أباً أيوب.

ووقف قسطنطين في وسط الملحمة يرطن بالرومّية، وهو يُجيّل سيفاً في يمينه، له في الظلام بريقٌ يومض، وبصرَ به النعمان بن عبيد الله في غبّة الليل ولم يكُنْ فنهاد إليه وهو يقول وسيفه في يده: إني لأرجو أن أبُرّ بك قسمى — أيها البطريق — فأثأر لأخي أو أثال الشهادة.

ثم عطف عليه بالسيف، فأفلت منه قسطنطين واحتُشّته داره^٨، واقتحم النعمان وراءه، فتهارب الصبيان والنساء بين يديه ولم ينل منّالاً.

وتشتّت شملُ أصحاب قسطنطين، وذهبوا في الأرض فارّين لا يلّوون على شيء، قد خلّفوا متاعهم وسلامهم، وتخلّف عنهم بعض النساء والصبيان، فسيقو إلى مضرب

^٤ الترات: جمع ترة، وهي الثأر.

^٥ كان لنساء العرب مشاركة في الحرب، بالغناء للرجال لتحميسهن، وقذف المهزومين منهم بالحجارة أو ضربهم بالعصي.

^٦ فرقة من فرق المحاربين.

^٧ التكبير: الله أكبر، والتلبية: لبيك لبيك.

^٨ احتُشّته داره: حاشته، حفظته ومنعت عنه العدو.

الأمير، وعاد النعمان بن عبيد الله إلى صاحبته؛ ليقاسمهم ما أفاء الله عليهم^٩ في هذه الغارة المظفرة، فلم يكن نصيبه من ذلك إلا فتاة من بناتهم، لم تنضج نضج الأنثى، ولكنها جاوزت حد الطفولة^{١٠} ... وكان عليها مطرف خز^{١١} وقد تدلّت على صدرها قلادة من ياقوت، ولعلت في مفرقعها جوهرة،^{١٢} فقال النعمان: إلّا تكون هذه بنت الطريق، فإن لأبيها بين القوم شأنًا.

ثم مال إليها يداعبها، ويسأّلها عن شأنها وشأن أبيها فلم تُجب بلسان، ولو أنها أجبت لما أبانت، فليست تعرف إلّا الرومية، وليس يعرف النعمان إلّا العربية ... واستقلَّ الغزاة سفيتهم قبل أنْ ينبعق الفجر، وأداروا شراعها نحو الغرب، ثم انحدروا نحو الجنوب، يلتمسون ثغراً من ثغور المسلمين يأوون إليه، وكلهم فرُّ بما أفاء الله عليه من السلام والغنمة والظفر بالعدو.

^٩ أفاء الله عليهم: من هم الغنيمة.

^{١٠} أكبر من طفلة، وأصغر من شابة.

^{١١} المطرف: ثوب منزلي، وهو ما نسميه «الروب»، والخز: الحرير.

^{١٢} في شعر رأسها جوهرة تزيينه.

الفصل الرابع

وَيْكٌ مُسْلِمَةٌ

ثبتت دعائِم العرش لبني مروان، ولم يكن الخليفة عبد الملك في غفلةٍ عما يقتضيه هذا العرش من حق التدبير في حياته وبعد موته ... فإنه ليخشى أن يتواكب إليه الطامعون من السُّفيانية أو الهاشمية بعد موته، وقد خلف عبد الملك بضعة عشر ولداً كلهم لأبٍ، ولكن أمهاتهم شتىٰ؛^١ منها العبسية، والمخزومية، والهاشمية، والسُّفيانية، ومنهن أمهات أولادٍ^٢ من الترك والسودان والروم وبنات كسرى، فما أحرى كل واحدة من هؤلاء الضرائر أن تُرجِّي العرش لولدها، وأن ينفخ فيه أخواله من روح العصبية ما يدفعه إلى الفتنة ...^٣

لقد كان عبد الملك شيئاً من أهل الرأي قبل أن يلي هذا الأمر،^٤ وكانوا يسمونه فقيه بني مروان؛ لصلاحه وعلمه وطول ملازمته لأهل الحديث وحملة القرآن، وأصحاب الرأي من العُبَاد والصالحين وأهل التحرُّج،^٥ فما كان أجدر شيئاً هذا مكانه أن يترك أمر المسلمين شورى بينهم، يختارون بعده من يشاءون ليلي أمرهم، لو لا أنه يخشى عليهم الفتنة، فليُولِّ عهده رجلاً من أهل هذا البيت المرواني، ينهض بأمر الدولة من بعده؛ ليذهب إلى ربه راضياً مطمئناً قد أمن على هذه الأمة أن تتوزعها الفتنة وأسباب المطامع.

^١ كان لعبد الملك أربع زوجات وعديد من الحظايا، وله من هؤلاء وأولئك أولاد، بلغت عدتهم بضعة عشر.

^٢ الجارية إذا ولدت لسيدها، ارتفعت منزلة، فصارت في مكانة وسطي بين الجارية والحررة، وتُسمى حينئذ: أم ولد.

^٣ لكل ولد عصبية من أسرة أمه.

^٤ قبل أن يصير خليفة.

^٥ التحرُّج: خوف الله.

إنَّ أباًه مروان قد جعل العهد من بعده لأخيه عبد العزيز بن مروان، ولكنَّ عبد الملك يرى بنيه أحَقُّ بهذا العرش وأقدر على صيانته، لولا أنَّ بنيه كثير، قد تقاربوا أعماراً، وتشابهوا مزايا، وتشكلوا كفائية.^٦

لو لم يكن الوليد لحَانَا لا يكاد يُقْيم لسانه بالعربية، متلَّفاً لا يكاد يُمسك درهماً ... إنه لأحَبُّ إلى عبد الملك، وإنَّ أمه لأدنى إلى قلبه منزلة.^٧

لو لم يكن سليمان بطيئاً أكولاً تيَّاهَا كثير العجب بنفسه ... إنَّ أمه العبسية لترجموه كما ترجموا أخاه الوليد، ولكنَّ الوليد أَسَنُ منه.^٨

وإنَّ هشاماً لحقيقة بأنَّ يَلِي هذا الأمر يوماً، لولا أنه جبانٌ بخيل، ولو لا خشية ما يتذَسَّسُ إليه من حُمُقِّ أمه المخزومية، وما كان عبد الملك ليولي عهده ابن مطلَّقته الحمقاء، ويَدَعُ الذين نشَّوْا على عينيه من بنيه.^٩

وإنَّ يزيد لاعرقُ بنيه أمومة،^{١٠} فأمُّه عاتكة بنتُ يزيد بن معاوية، أبوها خليفة،^{١١} وجُدُّها خليفة،^{١٢} وزوجها خليفة،^{١٣} فما أحرى ولدها أنْ يكون خليفة كذلك فيضمَّ المجد من أطرافه، لولا أنَّ يزيد لم يزل صبياً لم يبلغ مبلغ أهل الرُّشد.

وهناك — إلى هؤلاء — عبد العزيز بن مروان أخو الخليفة، ما يزال يطمع في العرش بعد عبد الملك، بعهدهِ من أبيه مروان.^{١٤}

ولكنَّ ما بالُ عبد الملك لم يذكر ولده مسلمة، وإنَّ لأشبُّ بنيه شباباً، وأجرؤهم قلباً، وأسدهم رأياً، وأكثرهم حمَيَّة، وله الرائيات البيض لم تزل تتحقق على السفائن

^٦ أعمارهم متقاربة، وصفاتهم متقاربة، وكفايتهم متقاربة.

^٧ من عيوب الوليد بن عبد الملك، أنه كان يلحن في العربية، ويُسرِّف في النفقة.

^٨ ومن عيوب سليمان، أنه كان نهماً لا يكاد يشعُّ، كثير الإعجاب بنفسه، وكان أصغر سنًا من الوليد.

^٩ وكانت أم هشام معروفة بالحمقاء؛ ولذلك طلقها.

^{١٠} يعني أنَّ أم يزيد كانت أعرق نسبياً من جميع الأمهات، ولكنه كان طفلاً ...

^{١١} هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ثاني ملوك الدولة الأموية.

^{١٢} هو معاوية مؤسس الدولة.

^{١٣} هو عبد الملك نفسه.

^{١٤} كان عبد العزيز بن مروان، أخو عبد الملك، أميراً في مصر، وكان أبوه مروان بن الحكم قد جعله ولِيًّا للعهد بعد أخيه.

غادِيَةٌ على سواحل الروم للغزو، أو مرففَةٌ فوق رءوس الجنديَّات في البريَّة لبيات العدو^{١٥} ... ولكن مسلمة – إلى كل ذلك – من أبناء الجواري، فكيف يليها ابن الرومية، ويحرِّمها أبناء الحرائر من بنات عبس ومخزوم وأمية!...^{١٦}

أقيمت حَلْبَةُ السِّبَاقِ في ظاهِرِ دَمْشَقِ عَلَى العَادَةِ فِي كُلِّ مُوْسَمٍ،^{١٧} وَتَقدَّمُ فَتِيَانُ الْعَربِ بِأَفْرَاسِهِمُ الْمُضَمَّنَةِ، يَطْمِعُ كُلُّ مِنْهُمْ أَنْ يَنْالَ بِالسِّبَاقِ جَائِزَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَجَلَسَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَلَى شَرْفٍ فِي طَرْفِ الْحَلْبَةِ،^{١٨} قَدْ أَفْتَمَ لَهُ سَرَادِقُ مِنْ خَزَّ وَنُصْبِتَ عَلَى رَأْسِهِ رَايَةُ بَيْضَاءِ، وَكَانَ الشَّوْطُ الْأَوَّلُ لِلْأَمْرَاءِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَلِكِ؛ الْوَلِيدِ، وَمُسْلِمَةَ، وَسَلِيمَانَ، وَيَزِيدَ، وَهَشَامَ.

وأشار رائض الحلة إشارته،^{١٩} فوثب الأمراء على ظهور الجياد، وشدوا اللجام، وملوا على الأعناق، يتبعهم الآلاف بعيون جاحظة، وأنفاس مبهورة، وأعناق تتوى على كواهل أصحابها، وبذا كان مسلمة سيبلغ آخر الشوط قبل إخوته، فبدت الكراهة في وجه عبد الملك، على حين انبعث من جوانب الحلة هتاف الجماهير باسم الأمير المظفر في كل غرزة: مسلمة بن عبد الملك.

ولكن فرس مسلمة لم يلبث أنْ عثر براكبه، ثم لم يك ينهض ليستأنف عدوه، حتى سبقه إخوته جميعاً وبلغوا آخر المدى ...

وطأطأ مسلمة رأسه أسفًا وهو يتقدّم في صف من إخوته إلى مجلس أبيه في سرادقه ذاك؛ ليستمع إليه وهو يُنشد متمثلاً:

نهيتكُمْ أَنْ تَحْمِلُوا فَوْقَ خَيْلَكُمْ هَجِينًا^{٢١} لَكُمْ يَوْمُ الرَّهَانِ فِي دِرَكِ

١٥ الباب: الهموم الباغت.

١٦ عيسى، ومخزوم، وأمية: قنائل عربية.

^{١٧} كان للعرب عنابة يسباق الخيل، لا للمراهنات، بل لتشجيع الفروسية ...

١٨ شرف في طرف الحلبة: منصة في صدر الميدان.

١٩ رأيُض الحلة: هو الحكم.

٢٠ ممثلاً: قائلاً منْ شعر غرّه.

٢١ الهم: هو غير الخالص العربية.

فتتعثر كَفَاه ويُسْقُط سوطه
وهل يُستوي المرءان هذا ابن حُرَّةٍ
وتُخدر ساقاه فما يتحرّك
وهذا ابن أُخْرى ظهرها متشرّك

قال مسلمة وقد بدا في وجهه الغضب: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، ليس هذا
مثلي، ولكن كما قال الآخر:

فَمَا أَنْكَحْوْنَا طَائِعِينَ بِنَاتِهِمْ
فَمَا زَادَنَا فِيهَا السُّبَاءُ مَذْلَّةً
وَكُمْ قَدْ تَرَى فِينَا مِنْ ابْنِ سَبِيلٍ
وَيَأْخُذُ رِيَانَ الطَّعَانِ بِكَفَّهِ
ولكن خطبناهم بأرماحنا قسراً^{٢٢}
ولا كَلَّفَتْ خَبِيزًا ولا طبختْ قِدْرًا^{٢٣}
إذا لقى الأبطال يطعنهم شَرْرًا
فيوردها بِيضاً وَيُصْدِرُهَا حُمْرًا ...

ثم أردف: إِنَّ الْأَمْهَاتِ لَا يَقْعُدُنَّ بِالرِّجَالِ عَنِ الْغَایِاتِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ كَانَتْ
أم إسماعيل بن إبراهيم جارية^{٢٤} ...

ولمعت دمعتان في عيني عبد الملك واختلت شفتاه، فقال وهو يميل على مسلمة
فِيُقْبَلُ رأسه وعينيه: أَحْسَنْتِ يَا بْنِي، ذَاكَ وَاللهِ مَكَانُكَ.
وانفخَتْ الحلة، وعاد عبد الملك إلى قصره وعاد بنوه، ولكن حدِيثاً ما ظلَّ يدور
في رأس عبد الملك منذ ذلك اليوم، ويدورُ مثله في رأس مسلمة وفي رؤوس أخرى ...

^{٢٢} خطبناهم قهراً، بسيوفنا!

^{٢٣} السباء: الأسر.

^{٢٤} إسماعيل بن إبراهيم: هو أبو عرب الشمال، وكانت أمه جارية.

الفصل الخامس

أمهات الملوك!

في غرفة من غرفات القصر الأموي الشامخ بدمشق، اجتمع أربع نسوة لم يجتمعن من قبل على موعدَة:

ولادة بنت العباس العبيسي، وعاتكة بنت يزيد بن معاوية، وعائشة بنت موسى بن طلحة التميمي، وأم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان؛ زوجات عبد الملك، لم يتَّحدُنْ عن مجلسهن إلا مطلقته أُمُّ هشام المخزومية!

قالت ولادة — أُمُّ الوليد وسلميَّان — بعد صمت: بَلَى، قد أَحْلَلَ اللَّهُ لِهِ فِرَاشَ جوارِيهِ فهَنَّ لِهِ حَلَائِلٌ، لِيُسَّرَّ لِوَاحِدَةٍ مِّنْ زَوْجَاتِهِ أَنْ تَمْنَعَهُ أَنْ يَفْيِئَ إِلَى خَلَوَاتِهِنَّ فِي أَيِّ وَقْتٍ شَاءَ مِنْ لَيلٍ أَوْ نَهَارٍ، وَلَكِنَّ لِلْحَرَائِرِ مِنْ زَوْجَاتِهِ الْعَهْدَ وَالْأُمُومَةِ، إِنَّ الْوَلِيدَ وَسَلْيَانَ، وَإِنَّ يَزِيدَ وَأَبَا بَكْرَ وَالْحَكْمَ وَهَشَامًا، لِأَوَّلِ بَعْدِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ وَمُسْلِمَةَ وَمُحَمَّدَ وَسَعِيدَ، وَمِنْ لَا أَذْكُرُ مِنْ أَبْنَاءِ جَوَارِيهِ وَإِمَائِهِ، فَلِيُطْبِ لَهُنَّ فِرَاشُ عَبْدِ الْمَلِكِ، أَمَا عَرْشُ أُمِّيَّةِ فَلَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مِّنْ أَبْنَائِهِنَّ!

قالت عاتكة أُم يزيد: أَتَرِينَهُ يَا وَلَادَةً يَغْفُلُ عَنْ ذَلِكِ الْحَقِّ؟ إِنَّهُ لَأَسْدٌ رَأِيَاً مِّنْ ذَاكِ، وَقَدْ سَأَلْتُهُ أَمْسَ حِينَ أَوَى إِلَى مَقْصُورَتِي لِبَعْضِ الرَّاحَةِ، حِينَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ حَلْبَةِ السَّبَاقِ، عَمَّا حَدَّثَنِي بِهِ يَزِيدُ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى مُسْلِمَةِ دُونِ إِخْوَتِهِ، وَتَقْبِيلِهِ عَلَى مَلِأِ مِنْ الْخَلَقِ فِي رَأْسِهِ وَعَيْنِهِ، وَاسْتِشَادِهِ إِيَّاهُ شَعْرًا يُعَرِّضُ فِيهِ بِأَبْنَاءِ الْحَرَائِرِ، فَضَحَّكَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَالَ: أَظَنْتِنِي يَا عاتكة أُنْتِي أَفْعَلْهُمَا؟ إِنِّي لَأَمُلُّ أَنْ يَكُونَ يَزِيدُ عَلَى عَرْشِ بَنِي أُمِّيَّةِ خَلْفًا مِّنْ أَبِيهِ وَجَدَّهِ وَجَدَّ أَمَّهِ.

^١ انظر الفصل الرابع.

انقلبتْ سَحْنَةً ولَادَةً كأنما أصابها المَسْخُ، ونسيت ملمسها من ضرائرها، وما دعنهنَّ إلى الحديث فيه، فقالت مُنكرةً: أي شيء تقولين يا عاتكة؟ وهل أوى عبد الملك إلى غير مقصوريٍّ حين منصرفه من حلبة السباق؟

قالت عائشة بنت موسى: نعم، وجلس إلى ساعه يُرْقصُ أبا بكر ويُغْنِي له:

يا مَلِكًا مِنْ مَلِكٍ منْ مَلِكٍ
تِهِ وَاسْتَطِلْ عَلَى الْمَلاِ وَامْتَلِكِ
وَلِدْ مَلُوكًا كَنْجُومَ الْحَلَكِ
يَسْتَبِقُونَ لِلْعُلَا فِي فَلَكِ!

قالت أم أيوب العثمانية مُحَنَّقةً: أمَّا الْحَكَمُ ابْنِي فلم يرْقصْهُ أحدٌ أو يُغْنِي له؛ إذ كانت أمه — بنتُ عثمانَ الخليفة المظلوم^٢ أَقْلَ منزلةً عند عبد الملك من بنات عَبْسٍ، وَتَيْمٍ، وَيَزِيدَ بْنَ معاوية!

ثم جمعت أطراف ثوبها، ونهضت مُعجلةً إلى مقصورتها، لم تُحِيِّ أحدًا أو تستمع إلى تحيته، ونهض صواحبها كذلك فتفرقُن في حجراتهن!

ودخل مسلمة على أمِّه «وردة»؛ ليشهد في عينيها دموًّا حائر، فلا تكاد تراه مُقْبِلاً حتى تُرسِل دموعها وتُطُرق في انكسار ...

— ماذا بك يا أماه؟

— لا شيء يا مسلمة.

— ولكنك تبكين يا أماه!

— لا تصدِّقْ كُلَّ ما ترى عيناك يا مسلمة.

— هل نالك أحد بمساءة؟

— ومن ذا يبالني بالمساءة وأنا أُم مسلمة، وحظيَّة عبد الملك أمير المؤمنين وسيد بنى مروان!

^٢ كان أبوها عثمان بن عفان — الخليفة الثالث — وقد مات قتيلاً، وقامت الدولة الأموية على أساس المطالبة بثاره، فما أجر ابنته أن تكون في مكان الحظوة العالمي.

- لعلَّ أمير المؤمنين نفسه ...
- وكيف يسوعني أمير المؤمنين، وأنا ولدتُ له مسلمة؟
- فلما إذن تبكين يا أماه؟
- من أجلك يا مسلمة.
- من أجلِي؟
- نعم، فلو لم ألدك، لكنتَ اليوم مليّاً عهداً أمير المؤمنين.^٣
- لو لم تتديني يا أماه لم يلدني غيرك، وما تطيبُ نفسِي بغيرك أَمَا ولو كانت ...
- صه! حَسْبُك ما أَوْغَرْتَ من صدورهن عليك.
- وماذا يُوَغِّرُ صدورهنَ على مسلمة، وإنه ليحملُ العباءَ كَلَّه عن أبنائهن، فهو المدعُوُ لـكُلَّ كريهة، وعليه أعباؤها دون غيره من أبناء عبد الملك، فما تزال تتقاذفه الفلواتُ وأمواج البحر من مفازةٍ مُهلكة إلى ثغرٍ مخوف؛ ليمكُن لعرشِ يتنازعه من لم يُسْلِ سيفاً من غمده للدفاع أو يحمل راية!
- من أجل ذلك بكى لك يا مسلمة.
- ولكنني سعيد يا أماه بما أبدل، ولست أطمع - ولا أريد - أن أحمل أو زارها^٤ فليحملوا منها ما قَدَرُوا عليه، وليدعُوا لي سيفي وفرسي ورايتي أجاهم في سبيل الله.
- تخادعني يا مسلمة!
- لا والله يا أم، وإنني ليسعدني أنكِ ولدتني، أكثر مما يُسعدني أن أبي هو أمير المؤمنين عبد الملك.
- صدق حَدْسُكَ يا مسلمة ...
- ماذا؟
- لا شيء.
- بل قلتِ شيئاً!!
- دع هذه يا مسلمة ولا تُلْحِف.
- تريدين أن تطوي عنِي سرّاً ...

^٣ تعني: لو لم تكون أمك جارية، لكنت أحق بالعهد من كل إخوتكم ...

^٤ لا أريد أن أحمل أثقال الخلافة وتعانتها.

^٥ الحدس: التخمين.

- نعم.
- أَيُّ سر؟
- السُّرُ لا يُسْأَل عنه يا مسلمة.
- هو إذن سُرٌ يَشِين.
- أخطأتَ وأسأَتَ يا مسلمة؟
- وهل يَكْتُمُ المرء من سَرِّه إِلَّا ما يَشِين؟
- نعم، وما يَصُرُّ.
- يضرُّني أو يضرُّك يا أم؟
- يضرُّني ويضرُّك يا مسلمة.
- لم أفهم بعد!
- خيرٌ لك إِلَّا تفهم.
- ولكن سَرًا تطويشه عنِّي وفيه مَحَرَّة ... يثُقلُ عَلَى ضميري ويُبلِّل خاطري.
- ليتنِي لم أبدأ حديثاً معك يا مسلمة.
- ولكنكِ بدأتِ.
- ولكنني بدأتِ.
- ووقفتِ عند كلمة السر، فطويتها عنِّي وتركتِني في بَلْبة!
- اسمع يا مسلمة.
- هيء!
- أنت يا بُنَيَّ صاحبُ اللواء في هذه الدولة، ما تزال تقود الجنَّد لحرب الروم، فتختن فيهم قتلاً وتجرِحَا وأسراً، حتى أرهقتَ الروم من أمرهم عَسْرَا، فهل تجدُ يا بُنَيَّ راحة نفس فيما تفعلُ من ذلك؟
- نعم يا أم.
- فكيف تصنع يابني إذا عرفت أنَّ في هؤلاء الروم خُئولتك؟
- قد عرفتُ ذلك منذ بعيد ... أَفهذا هو السُّرُ الذي تطويشه عنِّي؟
- نعم يا مسلمة.
- ليس ذاك ...
- تريدين أنْ أزيدك يا مسلمة؟
- نعم.

أمهات الملوك!

- فاعلم - وعليك وحدك تَبَعَّهُ هذا العلم - أنك تركب من الأمر عظيماً في حرب الروم.

- ماذا تعنين؟

- أنت تَطْلُبُ رأس جِدِّك!

- جِدِّي؟

- نعم، أبي ...

- وما تزالين تذكرين أباك يا أم؟ ...

- نعم، كأنه يُعِينِي منذ ساعات.

- واسمه؟

- قُسْطَنْطِين ...

- كلُّ رومي قُسْطَنْطِين!

- ليس مثل أبي قسطنطين أحدٌ من الروم.

- أهو فَيَصْر؟

- كأن قد بلَغَ هذه المنزلة.

- ولم يبلغ بعد؟

- لستُ أدرِي! فقد انقطع ما بيني وبين بَنِي أبي، منذ صرتُ إلى عبد الملك.

- وكان أبوك يومئذ ...

- بَطْرِيقَا يَوْهَلَه نسُبُه وجاهُه إلى العرش!

أطبق الفتى شفتيه، وحَدَّقَ فيما أمامه، وأمال رأسه إلى جانب، وسبح في أوهامه.

وجلست أمه بِإِزاءِه صامتة، ترميَه بعينين فيهما حُبٌ وإِشْفَاقٌ ووَجْلٌ.

وطال صمت الفتى حتى قلقت أمه، فقالت في حنان وعطف: لقد طَوَّفَتْ بعيداً في

أوهامك يا مسلمة.

- نعم.

- وهل عُدت؟

- نعم.

- وماذا رأيت في سرحتك يا بُنِي؟

- رأيت أباك.

- جَدَّكِ؟
- نعم.
- وقلت له ... وقال لك ...
- لم أستمِع إلى قولِ منه أو يستمع إلى قولِ مني ...
- تغاضبتما إذن؟
- نحن متغاضبان منذ كُنَّا ... إنني أنا مسلمة بن عبد الملك، وهو قسطنطين
- وَحْسَبْ!
- ولكنه أبو أمّك!
- قد كان ذلك يومًا، أما اليوم فلست منه وليس مني.
- وإذن فلم يُغَيِّر من رأيك شيئاً أنْ عَرَفْتَ هذا السر؟
- بل قد أَجَدَ لي عزماً جديداً ...
- وما ذاك؟
- أنَّ مسلمة حَقَّا في عرش القياصرة، فساحارب الروم منذ اليوم على عرش قسطنطين؛ لاستخلاصه لنفسي غير غاصب ... بحقِّ أمومتك.
- الآن طابت نفسي يا مسلمة.
- طابت نفسك بتقويض عرش القياصرة من آبائك وألك؟
- ذلك شيء آخر.
- فماذا تعنين إذن؟
- لقد كنت أخشى يا مسلمة - لو عرفت سر أمّك - أنْ تطفأ في قلبك جذوة الحماسة لحرب الروم، وهي كلُّ ما تملك يا بُنْتِي من أسباب المجد حين يتفاخر أبناء عبد الملك، فالآن قد أَمِنْتُ وطابت نفسي.
- الحمد لله.
- وسرُّ آخر لم يزل يحيك في صدر أمك يا مسلمة ...
- ماذا يا أم؟
- ولا تَغَضِّبْ؟
- لن أغضب لما يُرضيك يا أمّاه ...
- تُنَازِّعني نفسي إلى القسطنطينية حيث نشأت.
- تريدين أنْ أُرْدِكِ إليها؟

– بل ترددَها إلى ...
– لستُ أفهم!

– إنني آمل أنْ أجد ولدي مسلمة يجلس منها على عرش القياصرة، ذلك حُلْمي
القديم منذ كنتُ فتاة لم تُدرك، فقد علمتُ يا مسلمة أنْ بنات الروم – كبنات العرب
– لا يَحْلُمنَ حُلْماً أَمْجَد ولا أَسْعَد من أنْ تكون إحداهنْ أُمّا لقيصر، وقد حسِبْتُ أنِي
وَجَدْتُ تعبير رؤيَايِّي هذِه حين ولدتُ لعبد الملك، أما وإخوْتُك – كما ترى – يتسبّقون
دونك إلى ولاية عرش أمِيَّة، فإني أَرجو لرؤيَايِّي تعبيرًا آخر رُوميًّا لا يُعرف من الملوك
غَيْر قيصر.

– بل عرش قيصر وعرض أمِيَّة.

– صَه.

– ماذا؟

– أَخافُ عليكَ كيدَ بني مروان يا مسلمة.
– ولكن مسلمة لا يخاف يا أمَاه.

الفصل السادس

ولي العهد

تغَيَّر كل شيء في نظر مسلمة منذ ذلك اليوم الذي سبق فيه إخوته في حلبة الخيل بين يدي أبيه فسبقوه؛ وكأنه لم يدرِ إلا يومئذٍ أنه ابن جارية ... فلتكن أمه تلك من بنات الملوك أو من بنات الملائكة، فليست في أعين الناس جميًعاً إلا جارية.

ولم يقع في وهم مسلمة قبل ذلك اليوم أنَّ أباه قد يختاره لولاية عهده، ويرشحه للجلوس على عرش الخلفاء في دمشق؛ فلو أنَّ أباه اختار غيره من إخوته قبل ذلك اليوم لولاية العهد لما تَقْلَى عليه ذلك ولا التمس السبيل إلى معرفة أسبابه؛ أما اليوم فإنَّ له في نفسه وفي إخوته رأيًّا آخر ... فقد وجد نُدْبَةً في قلبه^١ من حديث أبيه إليه بعد السباق، ومما بلغه من حديث زوجات أبيه بعضهن إلى بعض، ثم من حديثه إلى أمها، ولكن رأيه ذاك، وما ناله من المساءة في حديث أبيه وحديث زوجات أبيه، لم يكن لِيُغَيِّر موقفه من إخوته شيئاً؛ فليكن العرش والتاج لمن شاء أبوه من إخوته أو من غير إخوته، فليس يعنيه ذلك في شيء، إنهم أحوج إلى مسلمة منه إليهم؛ إنه سيفبني عبد الملك، وحامل رايتهم في الجهاد، وصاحب رأيهم في السلام، رَضُوا أو سخطوا؛ فليستأثروا دونه بعرش أمية، فإنَّ له عرضاً في قلب كل عربي بين المشرق والمغرب، وإنَّه ليَأْمُلُ فوق ذلك أنْ يقتعد عرش جوستنيان في القسطنطينية، ويتخذها دار هجرة، فينزل في بلد خُؤلته ضيَّقاً على أبي أيوب الأنباري ...

^١ جرحاً في قلبه.

لم يَعُد النعمان بن عبيد الله إلى دار أهله في الجزيرة منذ خرج ليطلب ثأر أخيه عتبة في بلاد الروم؛ فقد اتّخذ في اللاذقية^٢ أسرة وداراً يأوي إليها كلما عاد من صائفة أو شاتيّة؛ وما كان ليأوي إليها إلا أياماً أو أسابيع يعود بعدها إلى ما بدأ، صائفاً أو شاتيّاً. وكان له نِكَايَة في العدو وصَبْرٌ على القتال واستماتة في المعركة؛ لا يقتصرها إلا وقد كَسَرَ جَفْنَ سيفه^٣ فلا يُغْمِدُه إلا في اللبات^٤ والصدور والجنوب، وكان شعاره في الحرب: لبَّيك عتبة! لبَّيك أباً أيوب!

وكم تعرَّض للشهادة فأخطأته، وعاد مثقلًا بالغنائم وفي كفه سيف بلا جفن يقطر دمًا، وكم احترَّ من رءوس، وبقرَ من بطون، وشقَّ من مرايا، ولكنه لم يَئِلْ مرة واحدة رأس بطريق من بطارقة الروم ثأرًا لأخيه ...

وتُشَيَّعُ بطولة النعمان بين القوم، ويتحدث المشاة والركبان بأنباء معاركه المُظْفَرة، حتى تبلغ تلك الأنباء أمه وعشيرته في أرض الجزيرة، فتدمع عينا العجوز الثكلى، وتترفع يديها إلى الله ضارعة أنْ يكُلَّاه ويرعايه؛ ليكون حَلْفًا من أخيه وأخيه ... وتهمس الشفاه باسمه في ثبور الروم خائفةً وجالة، فتتَعَوَّذُ منه بالمسيح والعذراء، إنه لينال بالرعب من أعدائه أكثر مما ينال بسيفه!

وكان النعمان أثِيرًا عند مسلمة^٥ منذ شهد ألوان بطولته، فأدناه منزلة وقربه مجلسًا، وصار له عنده نَقْلٌ مضاعفٌ^٦ من أسلاب كل معركة.

وعاد النعمان ذات خريف من صائفته؛ ليستقبل ضيقًا جديداً على الدنيا؛ فقد وُلدَ له مولود ذكر، ها هو ذا يُسْتَهْلِكُ صارخًا يؤذن أباً به بمقدِّمه، ورنَّ صراخه الأعمج في أذن أخيه كأنما يسمع منه صائحاً يهتف في المعركة: لبَّيك أباً أيوب! فمال عليه يُقبَّله في المهد وهو يجيب: لبَّيك يا عُتبة! وصار اسم ذلك الصبي من يومئذ: عُتبة بن النعمان.

^٢ اللاذقية: شعر على شاطيء سوريا، وهي اليوم ميناء الجمهورية السورية.

^٣ جفن السيف: غمد.

^٤ اللبات: جمع لبة، وهي العنق.

^٥ مقرَّبًا إليه، يؤثره على غيره من أصحابه.

^٦ نصيب مضاعف من الغنائم.

وكانما خشي النعمان — وقد صار أباً — أن تكون أبوته مجندة مبخلة،^٧ فاحتمل أهله ولدته إلى الرقة حيث تقيم أمه وعشيرتها، وعاد مُعجلًا إلى الشغر يتربص بالروم في كل صائفة وشاتية، وعاش الصبي بين جدته وبني عمومته، وخفَّ أبوه إلى الميدان.

المعارك تتولى بين العرب والروم، والسفن العربية عليها الرایات البيضاء، تغدو وتروح في بحر الروم بين أفريطيش^٨ وقبرص وأرواد^٩ وسواحل القسطنطينية، ما أجرر هذا البحر الأبيض أنْ يسمى «بحر العرب»! إنَّ جند العرب لتحتل شاطئه الأفريقي والأسيوي جميًعاً من المضيق إلى المضيق، وما فيه من جزيرة إلا ارتفع فيها الأذان ورفرت في عليها الراية العربية، وإن قوات الفتح لتوشك أنْ تثب من شاطئ إلَى شاطئ، فتببلغ القسطنطينية في الشرق وجزيرة الأندلس في الغرب، ثم تمدَّها حتى يلتقي جناحها في الأرض الكبيرة^{١٠} فلا يكون على شاطئ هذا البحر من فوق ولا من تحت إلا نفوسٌ عربية مؤمنة تعُج بالتكبير والأذان.

«أقاموا المآذن في كل أفق يُذكر عليها اسم الله: الله أكبر ...» واستجاب المسلمين للداعي، وترفرقت جيوش المسلمين في الأرض:
محمد بن القاسم الثقيفي^{١١} في الهند والسند يكتسح معاقل الكفر، ويدعو إلى الله
عُباد الوثن ...

وقتيبة بن مسلم الباهلي^{١٢} في خراسان ولبلاد الترك يُثخن في الأعداء إثخاناً بليغاً،
وينشر اسم الله في البرية الشاسعة بين الصين وجبال القبج.^{١٣}

^٧ سبباً للجبن والبخل.

^٨ أفريطيش: جزيرة في البحر، تسمى الآن «كريت».

^٩ أرواد: جزيرة صغيرة في البحر بالقرب من طرطوس في الشام.

^{١٠} كان العرب يسمون وسط أوروبا: الأرض الكبيرة، أرض رومية.

^{١١} من قادة جيوش الفتح في ذلك التاريخ.

^{١٢} من قادة جيوش الفتح في ذلك التاريخ.

^{١٣} جبال القبج: هي جبال القوقاز، من أرض روسيا الآن.

وموسى بن نصير الْخَمِي^{١٤} يحاول خطة لم يحاولها عربيٌ قبله، فيجهز مولاً طارقَ بن زياد لفتح أوروبا ...
ومسلمة بن عبد الملك ومحمد بن مروان^{١٥} ومن معهم من أبطال البر والبحر يُضيّقون الحصار على قصبة بلاد الروم^{١٦} فيتهاوى ما يليها من المعاقل معقلًا بعد معقل حتى توشك مدينة قُسطنطين الأكبر أنْ تدين بالولاء والطاعة لل الخليفة في دمشق. ولكن الخليفة قد تقدمت به السن، ويوشك أنْ يدركه أجله، وهو لا يريد أنْ يترك هذه الدولة طعنة للطامعين، يتنازعون حول العرش حتى تذهب ريحُهم، وتقتعهم العاصفة، فترمي بهم إلى الباردة حيث بدءوا الزحف منذ بضع وثمانين سنة.
ويرى عبد الملك أنْ يختار ولِي عهده لِيُبايع له قبل أنْ يموت؛ فتحفظ القلوب حوله وتطمح الأعين إليه ...

ويرى عبد الملك رؤيا، فيبعث إلى المدينة من يقصُّها على سعيد بن المسيّب^{١٧} يسألها تأويلها، ويقول سعيد لرسول عبد الملك: قل له: إنَّ أربعة من بنيه سيُلُون هذا الأمر؛ فليُحِسِّن إعداد بنيه لاحتمال تبعاتها.
وتشرِّبُ الأعناق إلى قصر الخلافة، وتصطُرُ المطامع في نفوس بضعة عشر ولدًا من أبناء عبد الملك، وفي نفوس بضعة عشرة من زوجاته وأمهات أولاده.
أيجعل العهد لأربعة من ولده؟
ومن يكون هؤلاء الأربع؟ ...

ما أخرى هذا أنْ يُنشيء العداوة والبغضاء بين بني أبٍ واحد، وما يدريه ما ترتيب آجالهم في لوح القدر وإن أسنانهم لمتقاربة؟
لا، فليَدْعُ سعيد بن المسيّب يعبر الرؤيا على أيِّ وجهٍ شاء، وليدبر هو أمره على ما يرى، لقد استأثر الله بالغيب فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه.
فليُولِّ عهده واحدًا وحسب، وليرأخذ له البيعة من إخوته؛ فإن ذلك حقيقٌ بأنْ يُبقي على وحدتهم ورأيهم، ول يكن ولِي عهده الوليد ...

^{١٤} من قادة جيوش الفتح في ذلك التاريخ.

^{١٥} من قادة جيوش الفتح في ذلك التاريخ.

^{١٦} قصبة بلاد الروم: عاصمتهم: القسطنطينية.

^{١٧} سعيد بن المسيّب: فقيه من أهل الرأي، كان له فطنة في تفسير الأحلام.

ولكن أخاه عبد العزيز بن مروان يطمع أن ينالها،^{١٨} وقد أوصاه به أبوه قبل مصرعه، فما أحراه أن يحفظ وصاة أبيه في عبد العزيز ليحفظ بنوه وصاته؟ ...
فلتكن ولادة العهد إذن للوليد بن عبد الملك وعمّه عبد العزيز بن مروان جميّعاً.
ولكن عبد العزيز لا يلبث أن يجيء نعيه من مصر، وتتحلّ العقدة المستعصية،
فيجعل عبد الملك عهده من بعده لولديه: الوليد، ثم سليمان، ابني ولادة العبسية.
وتنتمي البيعة للأميرين، ويحلف لهما بنو مروان وبنو أمية جميّعاً، ثم تؤخذ لهما
البيعة من الأمصار ...

ويُؤوي عبد الملك إليه أولاده ليقول لهم: «يا بني عبد الملك، أوصيكم بتقوى الله، فإنها عصمة باقية، وجنة^{١٩} واقية، وليعطف الكبير منكم على الصغير، ول يعرف الصغير منكم حق الكبير، مع سلامة الصدور، والأخذ بجميل الأمور، وإياكم والفرقعة والخلاف؛ فبهما هلك الأولون، وذلّ ذوو العز المعظمون، وانظروا مسلمة، فاصدروا عن رأيه؛ فإنه بابكم الذي منه تعبرون، ومحجّكم^{٢٠} الذي به تستجنون، وكونوا بني أم بردة،^{٢١} وإن دبت بينكم العقارب، وكونوا في الحرب أحراً، ولالمعروف مناراً...»

ثم يُقبل على ابنه الوليد، فيقول: «لا أفيئك إذا متْ تعصر عينك وتحنْ حنين الأمة،^{٢٢} ولكن شمر وائتزر، والبس جلد النمر، ودلّني في حفرتي وخلي وشأني وعليك شأنك، ثم ادع الناس للبيعة؛ فمن قال هكذا... فقل بالسيف هكذا...»

ثم يُغمض عبد الملك جفنه!

^{١٨} انظر التعليق رقم (٧) الفصل الرابع.

١٩ جنة: ستار واق.

٢٠ الجن: الترس.

٢١ إخوة برة.

٢٢ الأمة: الحادة.

٢٣ عنی: من عص

^{٢٣} يعني: من عصى فاضر به بالسف.

الفصل السابع

راهب اللقاء

ويجلس الوليد بن عبد الملك على عرش بنى مروان في دمشق، وتستمر الفتوح شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ويشرع الوليد في بناء مسجد دمشق،^١ ومسجد الرسول بالمدينة، ويأخذ في تعمير المراافق، وإعانته الزَّمْنَى،^٢ وتأمين المحتاجين وذوى الخلة،^٣ ويتردد اسم الوليد بين أربعة أقطار الأرض ...

وتقول ورُدُ لولدها مسلمة: كيف رأيت أخاك الوليد على العرش يا أمبا سعيد؟

- رأيُتْ خيراً يا أم، لو وَفَ لأخيه سليمان.

- ماذا؟!

- أحسبه يا أم يحاول خلع أخيه من ولاية العهد ليجعلها لولده.

- وعهدُ أبيه ووصاته له؟

- لقد همَ أبوه أنْ يغدر بأخيه عبد العزيز لولا أنْ عَجَلَ إليه أجله، فما أجر الوليد أنْ يغدر بسليمان!^٤

- إلا أنْ يَعْجَلَ إِلَيْهِ أَجْلُه.^٥

- من تعنين يا أماه؟!

^١ هو المسجد الأموي بدمشق، وما يزال قائماً حتى اليوم.

^٢ المرضي بأمراض مزمنة.

^٣ ذوي الاحتياج.

^٤ يعني أنه يريد أنْ يخلع أخيه سليمان، كما أراد أبوه أنْ يفعل بأخيه.

^٥ يموت.

- لم أعن أحداً، فليختر القدر.^٦
- ولكن سليمان حقيقٌ بأن يليها!
- كلاهما أخوان لأب وأم.
- ولكن راهباً في دير منعزل من أرض البلقاء^٧ أنبأني أنَّ سليمان سيليهما، ويفتحُ الله عليه بلاداً لم تطأها من قبل قدم عربي!
- أيَّ بلادٍ حدست؟^٨
- القسطنطينية ...
- مُرادك بعيد يا مسلمة، فما دامت هذه الأسوار، وتلك الحصون، وهذه النار الرومية التي يقذفونها على الغزا، فما تدع من شيء إلا جعلته تراباً؛ فلستُ آمل أنْ تُفتح عليكم حاضرة الروم من ذلك الطريق.
- ولكننا سنأخذ عليها كلَّ طريق، ونسلك سبيل البحر والسهل والجبل، من الشرق والغرب والشمال والجنوب، فلا تملك إلا التسليم.
- أيُّ شمال وجنوب؟ وأيُّ شرق وغرب؟
- لقد وطيء جيشُ العرب جزيرة الأندلس يا أماه، فما أسرع ما تنتال^٩ جيوشهم في الأرض الكبيرة زاحفة نحو الشرق، فيقتسمون على القسطنطينية أبوابها من الغرب، وقد ملك قُتيبة بن مسلم من أقصى بلاد الترك إلى جبال القبج وبحر بنطش،^{١٠} فما أسرع ما يثب من البحر إلى الساحل، وهذا جيش مسلمة^{١١} ما يزال يُراوحها ويُعاديها من البر والبحر، فهل تَرَيْنَ لها خلاصاً بين هذه القوات الأربع؟
- ويجلس مسلمة على عرش قسطنطين؟
- ويجلس مسلمة على عرش قسطنطين، ويحقق لامه أمنية، ويدع أبناء عبد الملك يتصارعون على عرش أمية.

^٦ هذا أو ذاك، كما يشاء القدر.

^٧ في شرق الأردن.

^٨ حدست: خَنَّت.

^٩ تنتال: تنتابع.

^{١٠} هو البحر الأسود.

^{١١} يعني نفسه.

– وَتُكِبْتُ عَدُوِّي وَعَدُوكَ يَا مُسْلِمَةً؟
– وَيَبْلُغُ عَدُوِّي وَعَدُوكَ مِنْ هَوَانِ الشَّأْنِ مَا لَا يَحْمِلُ أَحَدًا عَلَى التَّفْكِيرِ فِي أَمْرِهِ!

كان الإسلام في ذلك العهد دينًا خالصاً لله — كأول عهد المسلمين به يوم نزل — لم تدخله حُرافة، ولم يغلب عليه باطل، ولم يبتعد فيه مُبِطِلٌ حَدَثًا، إلا بعض ميراث الجاهلية في العامة من الإيمان بالنجوم والتماس علم الغد عندها،^{١٢} وإنما مطعم بعض الخاصة في صدق الرؤيا والهاتف وحدس النفس المؤمنة،^{١٣} فقد حدثهم مَنْ حَدَثَ أَنَّ النبي ﷺ قال: إِنَّ الرَّوْيَا بَضْعَةٌ مِنَ النَّبُوَةِ،^{١٤} وإنما بعض ما ألهمتهم آياتٍ من القرآن الكريم بما يتوارثه بعض أهل الكتاب من علم الغد يجدونه مكتوبًا عندهم في الإنجيل والتوراة،^{١٥} فهم يلتمسونه عند الرهبان المنقطعين للعبادة في الأديار والبيع^{١٦} المنتشرة في أرض البلقاء ووادي الأردن وأرباض الشام^{١٧} وأطراف الجزيرة؛ وإنما أحدهم بعض الفرق الإسلامية الناشئة مما يسمونه علم الملامح ويسندونه إلى فلان، إلى فلان، إلى علي بن أبي طالب، ويزعمون أنَّ فيه علم الغد كله مكتوبًا في «جفر»^{١٨} على سبيل الرمز والإيماء، فلا يحلُّ طَلَسْمَةٌ إِلَّا مِنْ أُوتِي حَظًّا من علم.
وكان إيمان الناس في ذلك العهد بهذه المستحدثات يختلف باختلاف بيئاتهم وميراثهم العقلي وحظهم من فهم الإسلام.

ولكن كلَّ نفس تستشرف إلى معرفة ما استسرَ في غدها من غيب الله؛^{١٩} فلا عجب أنْ نرى — في مثل ذلك العهد — طائفة من أهل التمييز وال بصيرة، لا تستنكف من غشيان الأديار وصوماع الرهبان تسألهם بعض ما عندهم من علم الغد!

^{١٢} التماس علم الغيب عند النجوم.

^{١٣} الإلهام.

^{١٤} جزء من النبوة.

^{١٥} في القرآن الكريم آيات تشير إلى شيء من علم الغد في التوراة والإنجيل.

^{١٦} البيع: المعابد المسيحية.

^{١٧} ضواحي الشام.

^{١٨} يعتقد بعض الشيعة أنَّ علم المستقبل كله مكتوب في جفر — والجفر هو جلد الثور — على سبيل الرمز، وأنَّ تفسير ذلك الرمز يتوارثه علماء الشيعة دون غيرهم.

^{١٩} ما اختبأ في المستقبل من علم الغيب.

وكذلك رأى مسلمة بن عبد الملك نفسه مُسْوِقاً ذات يومٍ إلى دير من هذه الأديار، يسأل راهبها بعَضَ ما عنده، وكان يصحبه في سُرْحَته تلك مجاهدٌ من أهل اللاذقية اسمه النعمان بن عبيد الله ...

قال مسلمة للراهب: يا شيخ، هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه ونحن؟^{٢٠}

- نعم، نجد ما مضى من أمركم، وما أنتم فيه، وما هو كائن؟

- أَفَمُسَمَّى أم موصوفاً؟^{٢١}

- كل ذلك موصوفٌ بغير اسم، واسمٌ بغير صفة.

- فهل ترى من صفتني وصفة صاحبتي هذا عندك؟

- أمير يعزفُ عن الإمارة،^{٢٢} أو تعزف عنه الإمارة؛ ينزع به عرق، ويجدبه عرق^{٢٣} جرادةً صفراء، تحت راية بيضاء، يُفتح به لغيره ولا يُفتح له، عن يمينه على العرش أربعة، وعن يساره أربعة، يدنو حتى يكون قاب قوسين، فيقف بينَ بَيْنَ، ثم يُفلتها بعد الأربعين،^{٢٤} وبينه وبين ما يأمله مائتان ومائتان وثلاثمائة، ثم يكون ما أراد، حين لا متع له بشيءٍ من ذلك الزاد، إلا عين جارية، وسيرة باقية، ويدُرُّ أبو أيوب، وأبو سعيد، ومحمد بن مُراد ...^{٢٥}

- وهذا الخليفة الجالس على العرش؟

- اسمُ صبي^{٢٦} وما هو بصبي، ترمقه العيون، وتتوهمه الظنون، وهو مما يُراد به في حِرْزِ مَصْوَنٍ، يُعْلِي البناء، ويوسّع الفناء، ويُجْزِلُ العطاء، ويُلْدُ النُّجَباء، ثم يمضي

٢٠ هل تعرفون واقع أمرنا وأمركم الآن؟

٢١ يعني: أهذه المعلومات مذكورة بأسمائها؟ أو بصفاتها؟

٢٢ يعزف عن الإمارة: يزهد فيها.

٢٣ فيه دم عربي ودم أجنبي ...

٢٤ الأربعين: المشقة.

٢٥ آثَرْنَا ألا نفتر كنایات هذا الحديث؛ لأنَّ فيما يأتي من فصول القصة تفسيرًا لكتير منها، وهذه الطريقة في الحديث هي طريقة المحدثين عن الغيب في كل زمان، فهي تشير إلى معانٍ غامضة، يفهمها كل سامع على الوجه الذي يريده.

٢٦ هو «الوليد».

كما جاء، ويختلف ملْكُ له اسْمُ نَبِيٍّ، ووَجْهٌ وَضِيٌّ، تُفْتَحُ عَلَيْهِ بَلَدٌ لَمْ يَسْلُكْهَا بَدوِيٌّ، وَلَمْ تَطْأَهَا قَدْمُ عَرَبِيٍّ، يَا سَلِيمَانَ بْنَ دَاؤِدَ! ارْفِعُ الْغَطَاءَ عَنِ الْمَائِدَةِ لِلْضَّيْفَانَ، إِنَّ لِلْمَأدُوبِيَّةِ موعداً قد حان!

وصمت الراهب برهة، وأطرق، وما لمسة على أذن رفيقه يُسْرُ إليه، ثم رفع الراهب رأسه يقول: وصاحب بالجنب يَنْشُدُ ضَالَّةً، والضَّالَّةَ تَنْشُدُ نَاشِدَهَا، والباب بين الناشد والمنشود عليه قُفل ورِتَاجٌ، وسِرْتُرُ من دِبِيَاج ... أَيُّهَا الصَّبِيُّ، أَيُّهَا الْجَارِيَّةُ، إِنَّ لَكُمَا وراءَ هَذَا الْبَابِ عُمُومَةً وَحُثُولَةً؛ اخْتَلَطَ الدَّمُ بِالْبَدْمِ، وَتَدَسَّسَ الْعَرْقُ إِلَى الْعَرْقِ،^{٢٧} وَيلَكُ لو انكشَفَ الْمَخْبُوءُ وَانهَتَكَ السُّتُّرُ وَأَزْيَحَ النَّقَابَ، لَقَدْ نَذَرْتَ نَذْرًا وَنَذَرْتَ الْمَقَادِيرُ نَذْرًا، فَأَوْفِ بِنَذْرِكَ، أَوْ تَجاوزْ عَنْ ثَأْرِكَ، فَسَتَبْلُغُ الْمَقَادِيرَ غَايِتَهَا بِرَغْمِكَ، وَيَشَهُدُ الْأَمِيرُ ضَاحِكَ السَّنْنِ عاقبةُ أَمْرِهِ وَأَمْرِكَ، فَيَحْدِبُ^{٢٨} عَلَى الْوَلِيدِ، وَيَتَرَحَّمُ عَلَى الشَّهِيدِ، وَيَصْلُ رَحْمَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ!

وتَفَصَّدَ جَبِينُ الشَّيْخِ عَرَقاً^{٢٩} كَأَنَّمَا كَانَ يَمْتَحِنُ عَلَى رَأْسِ بَئْرٍ،^{٣٠} ثُمَّ تَنْفَسَ نَفْسًا عميقًا كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ جُبَّ، وَرَاحَ يُقْلِبُ عَيْنِيهِ بَيْنَ الْأَمِيرِ وَصَاحِبِهِ صَامِتًا، وَالْأَمِيرُ وَصَاحِبِهِ يَتَبَادِلُانِ نَظَرَاتٍ لَا تَكَادُ تُفْحِصُ عَنْ مَعْنَى.

وقال الأمير لصاحبه وقد أخذدا طريقهما إلى المدينة: هل فهمتَ مما وصف الراهب شيئاً يا أبا عتبية؟

- قليلاً يا مولاي، وغاب عني الكثير!
- أفتدركِي ما المائتان والمائتان والثلاثمائة؟!
- أحسبه يعني الذين يستشهدون منا قبل أن تدين القُسْطَنْطِينِيَّةَ بالفتح.
- كذلك تزعُم؟
- وماذا تكون هذه السبعمائة إلا ذلك!

^{٢٧} اخْتَلَطَ الدَّمُ بِالْبَدْمِ وَالنَّسْبُ بِالنَّسْبِ.

^{٢٨} يَحْنُو.

^{٢٩} تَفَصَّدَ: تَقَاطِرُ عَرْقَهُ.

^{٣٠} يَمْتَحِنُ: يَرْفَعُ الْمَاءَ بِالْدَلْوِ مِنَ الْبَئْرِ.

- ظننته يحصي الأيام أو الأسابيع، فإن كان ذلك فإن بيننا وبين الفتح عامين، أو أربعة عشر عاماً ...
- أو بضعة وخمسين!^{٢١}
- وَيٰ!^{٢٢}
- بَلَى، فما أرَاه — إِنْ كان يحصي الأزمان — إِلا حاسِباً حسابَ الْأَهْلَةِ،^{٢٣} لا الأسابيع ولا الأيام.
- ذلك كثيُّرٌ يا أبا عُتيبة!
- ولكنك في عمر الدول قليلٌ يا مولاي.
- أخطأ حَدْسُك؛ فإني أزعم أنْ سيكون ذلك في عهد سليمان،^{٢٤} وتُفتح عليه بلاد لم يطأها عربي، أفتري سليمان يُعْمَرُ بضعة وخمسين؟
- أفذك قوله لابن داود: «ارفع الغطاء عن المائدة للضيوفان».
- ظننته كذلك.
- لقد كان سليمان بن داود يا مولاي مُلْكٌ لا ينبغي — في بني إسرائيل — لأحد من بعده، فما أحَرَى هذا أنْ يكون بُشْرَى سليمان بن عبد الملك أن تُفتح عليه كنوز الدنيا!
- ويكون اللواء في يدي يا أبا عُتيبة!
- ويكون أبو عُتيبة في ظلِّ لواء الأمير!
- ونبْلُغُ عرش قسطنطين الأَكْبَرِ، ونطأ بساطه، ونحطِّمُ أصنامه، وأدفع إليك عشرة من بطريقته تحتَّر رءوسهم ثائراً لأخيك.
- سيدِي!
- ماذا يا نعمان؟
- لقد تحدَّثَ الراهبُ عن الضَّالَّةِ وناشِدَها حديثاً لم أُعِهِ!
- أفلَمْ يُقْلِّ إِنْي سأشهد عاقبةَ أمِيرِكَ ضاحِكَ السنِ؟

^{٢١} إنْ كان يعني الشهور فهي بضع وخمسون سنة ...

^{٢٢} وَيٰ: عجَباً.

^{٢٣} الأَهْلَةُ: جمع هلال: يعني أنه يحسب بالشهور.

^{٢٤} سليمان بن عبد الملك ولِي العهد.

- بَلْ ...

- فَمَاذَا يَعْنِيكَ مِنْ سَائِرِ هَدَيَانِهِ وَخُلُطَتْ؟

- أَتَرَاهُ يَهُذِي وَيُخْلِطُ يَا مُولَّاي؟ فَلِمَاذَا يَصُدُّقُ فِي الْحَدِيثِ عَنْكَ، وَيُخْلِطُ فِي الْحَدِيثِ عَنِّي؟!

- أَفَظْنَنْتَ هُؤُلَاءِ الرَّهْبَانَ يَا نُعْمَانَ يَصُدُّقُونَ فِي كُلِّ مَا يَحْكُونَ؟

- وَلَمْ لَا ...؟

- فَهَبْهُمْ قَدْ عَلِمُوا مِنْ كِتَابِهِمْ غَيْرَ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ، فَمَنْ أَينَ لَهُمْ غَيْرُ سَائِرِ النَّاسِ؟

- وَمَاذَا يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَكْذِبُ؟

- ذَلِكَ يَا نُعْمَانَ كُلُّ مَا بَقِيَ فِي أَيْدِي هُؤُلَاءِ الْقَسَاوِسَةِ مِنَ الْجَاهِ فِي هَذِهِ الْبَلَادِ بَعْدَ أَنْ أَظَلَّهُمُ الْإِسْلَامَ، أَفَتَحْسِبُهُمْ يَنْزَلُونَ طَائِعِينَ عَنْ هَذَا الْجَاهِ، فَيَقُولُونَ لِبَعْضِ الْعَامَةِ: لَا نَدْرِي!

- قَدْ فَهَمْتَ.

- بَلْ مَا تَرَالْ بَعِيدًا عَنِ الْفَهْمِ.

- مَاذَا؟!

- أَرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكَ: إِنِّي لَمْ أَصُدِّقْ حَرْفًا وَاحِدًا مِنْ حَدِيثِ ذَلِكَ الرَّاهِبِ الشَّيْخِ، وَمَا قَصَدْتُهُ مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَإِنَّمَا أَرِدُ أَنْ أَتَمَسَّ إِلَى التَّسْلِيَةِ سَبِيلًا، وَأَنْشَدَ رَاحَةَ نَفْسِي، فَدَعْ عَنِكَ حَدِيثَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ كَأَنْ لَمْ تَسْتِمِعْ إِلَيْهِ، وَلَمْ تَجْلِسْ بَيْنَ يَدِيهِ.

- قَدْ سِمِعْتَ!

وَمُضِيَا عَائِدِينَ مِنَ الدِّيرِ قَدْ أَطْبَقا شَفَاهُهُمَا، لَا يَتَحَدَّثُ أَحَدُهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْحَدِيثِ، وَلَكِنْ لَكُلُّ مِنْهُمَا مَعَ نَفْسِهِ حَدِيثًا ضَافِي الْذِيَوْلِ.

الفصل الثامن

بارقة أمل

لم تكن أم النعمان تعرف أن ولدتها اتّخذ زوجاً، إلا يوم عاد إليها بعد غيبة دامت سنتين يصحبُه ذلك الطفل وأمه؛ أما الطفل فقد عرفته، إنَّ فيه مَحَايِلَ من أبيه – وإن لم يزل رضيغاً في لفائفه – وإن اسمه عتبة، أو عتبية، وما أحَبَّهُ اسمًا إلى قلبها! إنه ليُذْكُرُها بعْمَهُ عتبة بن عبيد الله الذي ذهب منذ سنتين ولم يُعدْ بعْدُ، فلا تدرِي أفي الأحياء هو أم في الموتى، فليُكِنْ هذا الصبي خَلْفًا من عمه الذي طواه الغيب في ظُلْمَاتِه، وذكرى دائمة لأبيه الذي قطعه الغزو عن لِدَاتِه ورماه في البحر والفلوات لا يكاد يستقرُ في بلدٍ أو يهدأ على ظهر سابحة.

ولكن من تكون أمُ هذا الغلام؟ من أيِّ بلاد العرب؟ وإلى أيِّ بطنونهم تنتمي؟ إنها لنحيلةً مشوقة، في عينيها زُرقة، وفي خديها شُحوب، ولحيثها نبرٌ عذب، وفي يدها إشارة لطيفة، ولها حظ من علم وأدب وظرف لم يحصل مثله كثير من بنات العرب، كلُّ ما تعرف أمُ النعمان عن كُنَّتها^١ هذه الجديدة أنْ اسمها «سَبِيكة»، وأنها أمُ ذلك الصبي العزيز: عتبية بن النعمان ...

أعربَّة هي أم مولدة؟ أم فتاة جلبها ولدُها من السباء^٢ أو من سوق الرقيق في بعض بلاد الشام؟ أزوجة هي أم أمُ ولد؟ ليس يدرِي أحد، ولكنهم جميعاً يعطفون عليها، ويأنسون إلى حديثها، ويسارعون إلى مَرَضَاتها، لا يسألونها عما لا يعرفون من

^١ الكنة: امرأة الابن.

^٢ السباء: الأسر.

خبرها، حفظاً لغيب صاحبها،^٣ ولا تحدّثهم هي مبتدئة عما يريدون أنْ يعرفوا، حفظاً لغيب نفسها ...

وتعاقبت الأعوام وسبيكة تعيش في ظل الحنان والعطف من حماتها وسلفتها وأخوات زوجها وولد أخيه، لا تكاد تحس أنها غريبة في هذا الجو الجديد عليها ولا يقادون يحسون.

ولم ينس النعمان بن عبيد الله أنَّ له زوجاً ولداً، فكان يُلْمُ بالرقة حيناً بعد حين، كلما وجد فسحة من الوقت بين صائفتين، فيقيم بين أهله أياماً قليلة ثم يرحل ... وشبَّ عتبية بين فتيان الحي وفتياته، وقد آخى ابن عمه بشيراً وأخته نوار؛ فكأنما جمعتهم أمومةٌ واحدة وأبوة، وكذلك مضت الحياة بهذه الأسرة كما تمضي بكلِّ الأسر في ذلك البلد، لم يُذَكِّر أحدٌ من أمرها شيئاً، ولم تُذَكِّر من أمر نفسها؛ قد غاب رجالها في الغزو والجهاد كما يغيب رجالٌ كثُر في مثل تلك السنين عن زوجاتهم وأهليهم، واحتملت الأسرة غيابه راضية كما تحتمل أسرُّ كثيرة في مثل تلك السنين غيبة رجالها راضية، بل، كان في هذه الأسرة رجلان صغيران، هما عتبية بن النعمان، وبشير بن عتبة، ولكنهما طفلان وإن بدا لهما - من مكانتهما في الأسرة - أنهما رجلاً الأسرة وعليهما لها مثل تبعات الرجال.

وكانت الصوائف والشواتي ما تزال غادية رائحة بين الثغور في البر والبحر، عليها من أصحاب مسلمة رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لم يخرجوا في هذه الرحلات المتابعة لاهين ولا هازلين، قد وطنوا أنفسهم على الظَّفر في كل غارة يُغيرونها أو يستشهدوا؛ منهم النعمان بن عبيد الله الرَّقِي، ومنهم أبو محمد الأنطاكي، ومنهم عبد الوهاب بن بخت؛ ثلاثة ما يزال صدِّى أسمائهم يتربَّد في بلاد الروم مُخيِّفاً مُفزعًا، يُرعب الصغير، ويؤرق الكبير، ويقْضي مضاجع النُّوَام؛ فإنَّ الْأَمَّ في ثغور الروم ليُذْنِبُ صغيرها أو يبكي فتُرِيدُ تأدبيه، فتقول له: اسكت أو أدفعك إلى الأنطاكي، أو ابن بخت، أو النعمان! فيكُفُ الصغير عن بكائه ويستغفر من ذنبه!

^٣ احتراماً لسر زوجها.

^٤ السلفة: هي امرأة أخ الزوج.

وكانت صَيْحُتُهُمْ في الحرب: لَبَّيك أباً أَيُوب، فَكَانُوا تُرْدِدُهَا وراءَهُمْ – حين يلفظونها – أَوَانِي الْبَحْرُ وصخورُ الْجِبْلِ، وَتَنْدَاهُ^٦ في سهول الْبَادِيَةِ صَدَى مَتَّصِلٍ الرَّنِينِ، يُفْزِعُ وَيُرْهِبُ وَيَقْطَعُ عَلَائِقَ الْقُلُوبِ.
وكانوا يحملون في الحرب سِيَوْفًا بلا أغمام، إذ كانوا لا يخرجون بها من المعركة إلا مُحْطَمَةً من طول الضَّرَابِ!

وجلس ثلاثتهم ذات ليلة من ليالي العُطْلة في بعض مضارب الجُندِ يَسْمُرونَ، كعادتهم كلما سكن غبارُ الحرب، وأخذوا في لونِ من ألوان المفاخرة بما أتوا من أعمال البطولة في حرب الروم، فراح كُلُّ منهم يُحْصِي ما في جسده من آثار الجراح، لا يكادون يستقصونها إحصاءً وعداً، وبدا الأنطاكي أكثرَهُمْ آثارَ چراح، فقال ابن بخت مُعجِّبًا: الله ما أَبْلَيْتَ يَا أَبا مُحَمَّدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِنَّكَ لِبَطَالٌ!^٧

قال النعمان: إنه لأعلى منزلةٍ مما تَصِفُ يَا أَبا عُبيدة؛ إنه لبَطَالٌ.^٨
وضحك الثلاثة ضحْكًا عريضاً، ترددَتْ أصداؤه في مضارب الجُندِ، وصار اسمه من يومئذ: أبا محمد البَطَالِ،^٩ لا يكاد يعرفه أحدٌ إلا به.
وقال أبو محمد ولم يزل يُشْرِقُ بضحكته: لقد أذكَرْتُمَانِي أمراً حانت مناسبته، فقد كنت بأنطاكية ذات يوم من سنة ٧٠، وقد زحف الروم بجحافلهم يتلمسون غرَّة عبد الملك، حين اشتغاله بحرب ابن الزبير وتوقي مكاييد عمرو بن سعيد ومقاومة الخوارج،^{١٠} وبدا للروم كأنما دانت لهم أنطاكية وانفتح الْبَرُّ، ولم يكن ثمة جيشُ للعرب يصدُّ غاراتهم، واستضعفَ المسلمين فأُولئِكَ منْهُمْ من أوى إلى داره، وفرَّ من فرَّ إلى خارج المدينة، ورأيتني ذلك اليوم بغثةٍ بين كوكبة من جُند الروم، يسوقون في الحال ثلاثة أسرى من العرب، وليس معه إلا سيفٌ مفلول، قد تحطمَ من كثرة الضَّرَابِ، وهتف بي الأسرى في أغلالهم يطلبون النجدة: إلينا يا أخَا العرب!

^٥ أمواج البحر.

^٦ تنداح: تعظم ويَتَسَعُ صداتها.

^٧ عظيم البطولة.

^٨ أبو محمد البَطَالِ: من أشهر أبطال ذلك العصر في حرب الروم، وله ذكر في التاريخ، وسيرة مستفيضة في بعض الشخصيات الشعبي.

^٩ انظر الفصل الثاني وما بعده من هذه القصة.

وثارت حميّتي، فحملتُ فرداً على الجماعة بسيفي المسلح، لم أحفل بما تناول سيفهم من لحمي، وقصدتُ إلى الأساري أريد أن أخلصهم من أيدي القوم، وتواتلت على الضربات لا أكاد أحسُّ وقعاها على جسدي، وأوشكتُ أن أخلص الرجال، بعد أنْ جندلتُ في طريقي إليهم بضعة نفر، وهتف أحد الأساري بصاحبيه: أبشر عتبة! أبشر سعيد! وهتف آخر منهم — وهو يشير إلى جانبي فزعاً: فديتك يا بطّال ... احذر! ونظرتُ إلى حيث كان يُشير؛ فإذا روميٌّ في زي بطريق قد رفع سيفه على رأسي، فهممتُ أنْ أخلص للضربة القاسمة، ولكن سيفه نالني ...

ثم كشف أبو محمد عن كتفه؛ فإذا أثر ضربة غائرة في حبل العاتق مما يلي العنق ... واستأنف أبو محمد: فذلك أول ما سمعتُ كلمة «البطّال»!
كان النعمان يسمع ذاهلاً، قد اختلت شفتاه وحال لونه، فلم يكدر يسكن أبو محمد البطّال حتى ابتدره سائلاً في لهفة: وماذا صنعت بالأساري؟
— لستُ أدرى؛ فقد أعجلتني ضربة قسطنطين عن تخليصهم، فنجوتُ من الموتِ
ولم أكدر!

— منْ قُسْطَنْطِين؟

— ذلك الطريقُ الذي نالني بتلك الضربة، لقد لقيته بعدها في بعض الصوائف، وعرفته وعرفني، ولكنه أفلت من يدي ...
— والأساري؟ ...

قال البطّال مُستَحْفَماً: وما عنایتك هذه بهؤلاء الأساري وقد مضى زمان؟ وكم بين العرب والروم من قتلوا وأساري!
— قد قلتَ: إنْ عتبة كان أحد هؤلاء الثلاثة؟!
— ومنْ عتبة هذا؟
— إني لأظنه أخي.
— أخاك؟!

— نعم، فقد خرج للغزو منذ ذلك التاريخ فلم يُعد، ولم تكن صوائف ولا شوافٍ يومئذ، فقد كان عبد الملك في شُغلٍ عن الصوائف والشوافٍ بحرب الخوارج.
صمت البطّال بُرْهَة وهو يُحدّق في وجه صاحبيه، ثم قال موافقاً: قد يكون إيه ...
وكان عبد الوهاب بن بخت صامتاً، يستمتع إلى ما يدور من الحوار بين الرجلين في اهتمام، ثم عَقَّبَ: بل إني لأرجو أنْ يكون إيه.

فالتفت إليه النعمان قائلاً وقد شاع في وجهه الألم: عندك ما تقول يا أبا عبيدة؟
ـ نعم، فقد كان أحد الثلاثة سعيد بن جنادة، وقد خلص بهم الروم إلى البحر،
فاحتملواهم أسارى على ظهر سفينة رومية، ولكن ابن جنادة التمس غرّة من القوم،
فألقى بنفسه من السفينة بعد ما أبعدت عن الساحل، فبلغ البر سابحاً ... وقد لقيته
فحَدَّثَني ...

ـ بماذا حدّثك؟

ـ قال: إنَّ أحد صاحبيه اسمه عتبة الرَّقِّي، أليس بذلك الرقة؟

ـ بل، وماذا قال غير هذا؟

ـ لم يُحَدِّثَني عنهم أكثر من ذاك.

ـ وأين ابن جنادة هذا؟

ـ مات تحت أسوار مَطْيَّةٍ^{١٠} ...

ـ مات؟ ...

ـ نعم، وإنني لأرجو أن يكون أخوك حياً فلتقاوه ويُحَدِّثَك الخبر!

ـ ليت الأماني تصدق يا أبا عبيدة!

ـ وخلا النعمان إلى نفسه يُفَكِّر في أمره ... هل تَصُدُّقُ الأماني؟ وهل يرى أخي حياً
فيُحَدِّثَه ويستمِعُ إليه؟ ولكن أين ...؟

ـ وهو رول عائداً إلى أبي محمد البطل يستزیده: لقد قلت يا أبا محمد: إنَّ البطريق
الذي نالك بسيفه اسمه قسطنطين؟

ـ نعم!

ـ وإنك لقيته بعدها في بعض المغارب فعرفته وعرفك؟

ـ نعم!

ـ أفلستَ تظُنُّه يعرِفُ ما آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ هؤلاء الأسرى؟

ـ أظن ...

ـ فإنني أريد أن ألقاه.

ـ مَنْ؟!

ـ قسطنطين البطريق.

١٠ ثغر من ثغور الروم.

- كل رومي قسطنطين يا أبا عتبة،^{١١} فهل تظنني أذكر كل ما مرّ بي من الصور والحوادث على تعاقب السنين؟
- أفلست تذكر أين لقيت قسطنطين هذا في الغَزَاة الثانية؟
- لست أذكر.
- ولكنه يعرف بعض أبناء أخي، فأين ألقاه إذن؟
- في بعض المعارك.
- ماذ؟
- أعني لا بد أنك ستقاهم في معركة قابلة، فإنه رجلٌ جلادٌ فيما يبدو، هذا إذ لم يكن قد مات.
- أتظنْه مات؟
- وماذا يمنع؟ لقد كان يومًـ أسطوريًا شيخاً قد جاوز الخمسين، فإن لم يكن قد لقي أجله في بعض المعارك فقد جاوز اليوم سنّ الموت.
- وأسفاه!
- تأسفُ على موت عدوك وعدو الله!
- بل آسفُ على أخي، وما غاب عني من خبره.
- إنك لتُسرِّفُ في الأمل يا أبا عتبة إسراًغاً يوشكُ أن يُقللُ عزمه عند أول صدمة فيقطع بك، فهل استيقنت يقيناً لا شبهة فيه أنَّ ذاك أخوك؟ فكم في العرب من «عتبة»، وكم عربي اسمه «الرَّقِّي» ولم يدخل الرَّقَّة أو يرها بعينين، فمن أين لك اليقين بأنَّ ذاك أخوك؟
- إلَّا يكن أخي لأبي وأمي، فإنه أخي في الدين والنسب.
- صدقت، وإنه أخي كذلك، وأخو كل مسلم وعربي.
- فستحرِص منذ اليوم على ما أحِرص، فلتلتَّمِس له أسباب الحرية؟
- نعم، ولكل عربي في الأسر، وأطلب ثأر القتلى بكل رأس رأسين.
- ودوَى النفير، فهبَّ المسلمون إلى أسلحتهم، وهبَّ النعمان معهم إلى سلاحه وهو يلْبِي: لبيك أباً أيوب، الله أكبر.

^{١١} يعني أنَّ اسم قسطنطين من الأسماء الكثيرة الشيوع بين الروم.

الفصل التاسع

نداء الدم

- يوشك حديث الراهب أن يكون حًقا!

كذلك قال النعمان لنفسه، ألم يقل ذلك الراهب: إنَّ صاحبًا بالجنب ينشُد ضالة، والضالة تنشُد ناشدها؟ ... فذاك هو وأخوه، ولكنه يريد أنْ يعرف أين تنتهي القصة؟ وما ذلك الباب عليه القفل والرِّتاج وستر الدبياج؟ ومن ذلك الصبيُّ وتلك الجارية؟ وما تلك العمومة والخُلولة واختلاط الدم بالدم وتدسُّس العرق إلى العرق؟^١

ليته يعود إلى ذلك الراهب فيسأله أنْ يوضّح له ما غمض من هذه الأحادي;^٢ إنَّ الرهبان ليعرفون كثيراً من غيب الخاصة وغيب العامة على السواء،^٣ وما أنصف مسلمة حين وصف ذاك الراهب بما وصف ورماه بالهدىان والخلط!

وطوَّح الخيال لنعمان إلى مرامي بعيدة، وطوَّفَ حالماً بين ما يعرف من ثغور الروم يتحسَّسُ آثار أخيه، ثم آب من رحلته تلك مكود الذهن، ضيق النفس، خائر العزيمة، لقد كان قبل اليوم يُجاهد مُستميًّا ليُدرك ثاراً أو يظفر بالشهادة، أما اليوم فإن له هدفاً آخر ... ليس في نفسه اليوم إلا صورة أخيه الذي يزعم أنه لم يزل حياً في الأسر عند بعض بطارقة الروم، وليس له أمنيةٌ إلا أنْ يصل إليه فيستنقذه فيرده إلى أمه وزوجه وولده!

^١ انظر حديث الراهب الفصل السابع.

^٢ الأحادي: الألغاز.

^٣ إشارة إلى جواب مسلمة له، حين أراد أنْ يكتبه عن الاسترسال في التعليق، الفصل السابع.

والتفت خاطره إلى الذين يقيمون في الرقة من أهله، إن له شمة زوجاً ولدأ،
يعيشان بين أمّه وزوج أخيه وولديه، لا يكاد يطرُّقُهم زائرًا حتى يؤذنَّهم بالفارق،^٤
وقد مضى عامان منذ آخر زيارته لهم، فلم يرهم ولم يروه منذ ذلك الحين، كيف صار
ولدُه عتبة اليوم؟ وما شأنه وشأنُ ابن عمه بشير بن عتبة؟ وأخته نوار بنت عتبة؟
تلك الدُّمية الصغيرة الضاحكة أبداً لأنما يُصْبِحُها أبوها ويُمسيها بالمزاح والدعابة
والطرائف المجلوبة، وأبواها أسير في حصن من حصون الروم لم تره قط ولم يرها ...
وعاد يذكر أخاه عتبة ... وتخيلَّ كأنما لقيه بعد أين، فاعتنقا، وتذاكرا الماضي
طويلاً، واصطحبَا على الطريق إلى الرقة، حيث يقيم بشير ونوار وعتبة وجدهم العجوز
وامرأتان آخرتان قد فارقهما زواجهما منذ بعيد، فلا هما زوجتان ولا أرملتان! ...
ويرى عتبة بن عبيد الله ابنته نوار،عروساً فاتنة ضاحكة السن أبداً، فيسأل: من
هذه؟ **فيضمُّها عتبة بن النعمان إليه ويقول: هذه لي.**

وتضحك امرأتان ورجلان، وتمتلئ قلوبهم غبطة ومسرة، ويتحقق عتبة لابن أخيه
ما أراد، **فيزُوجُه نوار، ويعود الأنس إلى تلك الدار الموحشة.**^٥
ثم يستيقظ النعمان من حلمه ذلك، فإذا هو في خيمته، منبطح على فراشه، وإلى
جانبه سيفه وترسه، ويفيء إلى الحقيقة^٦ بعد مشوار طويل في وادي الأحلام، ويهمُّ أنْ
ينهض فتجاذبه الأرض. إنَّ الأُماني مكسلة مجنَّة^٧ ولكنَّه لا بد أنْ ينهض، فإنَّ الجنَّ
في الميدان لا يُؤْذَن لهم في أنْ ينبطحوا على الأرض طويلاً، وينسِّحوا في الأحلام من وادٍ
إلى واد ...

كانت الدولة حتى ذلك اليوم عربية خالصة، وكانت عصبية الأبوة والأمومة وخلوص
العرق من هُجنة الدم، هي السياسة ومدار التدبير في الدولة؛ فليس للمواли ولا لأبناء
الجواري جاه في الحكم ولا مطعم في الرياسة ولا اعتبار عند الأمراء ولا عند السُّوقَة،^٨

^٤ يعني أنَّ زيارته لهم قصيرة.

^٥ من الواضح أنَّ كل ذلك تخيل.

^٦ يرجع إلى الحقيقة.

^٧ بعض الأُماني تدعى إلى الكسل والجبن.

^٨ كانت هذه سياسة بني أمية.

وكان الخلفاء مع ذلك يُؤثرون الروميات والصَّقْلبيات^٩ وبنات الترك والعم والملقبات السودة أحياناً على الحرائر من بنات العم والخال، فيتَحذَّونهن للفراش والخدمة وسياسة القصور ومجالس الأنس والمسرّة، ولكنهن إنْ يلدن فليس أولادهن في اعتبار آبائهن إلا أبناء جوار، وإن كانوا في الذورة من الفضائل والحكمة وسياسة الأمور والشجاعة في الحرب، وكان أبناء العامة والخاصة من جواريهم في هذه المنزلة كذلك عند آبائهم وإخوتهم وأهليهم، فليس لهم عند أحد منزلة ابن العربية الحرة ...

من أجل ذلك أبِعِد مسلمة عن عرشبني مروان، وهو من إخوته — كما قال أبوه — «حَكِيمُهُمُ الَّذِي عَنْ رَأْيِهِ يَصْدِرُونَ، وَبَابِهِمُ الَّذِي مِنْهُ يَعْبُرُونَ، وَمِجْنَهُمُ الَّذِي بِهِ يَسْتَجِنُونَ ...»^{١٠}

ومن أجل ذلك أيضاً كتم النعمان بن عبيد الله عن أمه وأهله أمر امرأته سبيكة، فلم يُحدِّثُهم أنها أم ولد، كانت نصيبيه من الفيء في بعض الغزوات، فحاازها في داره حتى نَضَجَتْ نَضْجَ الأنثى، وأحكمت العربية لساناً، وتشَرَّبتَ الإسلام دينًا، فاتخذها أمًّا ولد، ثم ترقَّى بها درجة فجعلها زوجاً، ثم حملها إلى أهله لا يدرُون من أمرها إلا أنها أم عتبية بن النعمان!

لقد خَشِيَ النعمان أنْ يُهَجِّنَ أَوْلَادُ عمومته ولدَه عتبية حين يعرِفُونَ أنه لَمْ ولِدْ روميًّا؛^{١١} فكذب تلك الكذبة الصامتة، ولم يتحدث إلى أهله بشيء من خبرها، وبعض الكذب لا تلفظه شفتان.^{١٢}

ولكن هذا النحول في القدر، وتلك الزُّرقة في العينين، وذاك الشحوب في الخد، وذلك التَّبَرُّ في الحديث، كل أوَلِئِكَ يُنْمِي نَمِيمة فاضحة عن أَرْوَمَةِ تلك الصَّبِيبة؛^{١٣} فتتهامس حولها بعض الشفاه، وتتقبض عنها بعض النفوس.

ويُفِدُ النعمان إلى الرَّقَّة زائراً ذات مرة — كبعض عادته — بعد غيبة طويلة، فتلقاء زوجه طيبة النفس راضية، قد افترَّ ثغرُها عن ابتسامة، تُعبِّرُ عن مدى شوقها إليه

^٩ الصَّقلبيات: بنات الصقالبة: البُلُغَارُ ومن جاورهم.

^{١٠} انظر وصية عبد الملك لبنيه، الفصل السادس.

^{١١} أنْ ينزل عندهم قدره؛ لأنَّه هجين، انظر التمهيد.

^{١٢} الكذب الصامت: أنْ تسكت عن الحق فلا تقوله.

^{١٣} الأرمومة: الأصل.

وسرورها بمقدمه، ولكنه يرى وجنتيها قد ازدادتا شحوباً، وعينيهما قد بَدَتَا أكثر زُرقةً وعمقاً، ويرى على تَيِّنَك الشفتين الرقيقتين كلماتٍ تختلُجْ يُجازبها الحياة منه والحفظ على مودّته أن تفِظُّها، ويسألها النعمان عما بها فلا تجيب، ولكنها ما تكاد تسمع صوته الحاني حتى تستحيل تلك الاختلاجة دموعاً تنحدرُ على الوجنتين الشاحبتين، ويدنو منها النعمان، فيمسح على شعرها بيده، ويعيد سؤاله متلطفاً، فتجيبه: ليس يخفى علىّ يا نعمان – ولا يطيب لي أنْ أُنكر – أُنني جاريتك.

– بل زوجتي وأُم ولدي يا سبيكة.

– نعم، أم ولدك التي أكرمتها بنسبك فسميتها زوجاً.

– بل أنتِ أكرمتيني يا سبيكة بِيَّا بما أسبغتِ علىّ من حنانك وعطفك، ثم أكرمتيني ثانيةً حين ولدتِ لي عتبة هذا الذي أرجو أنْ يكون قرّة عينِ لي ولك، وما زلتِ تُكرميتنني بما تحفظين من غيبي وتحدين على أهلي وترعين ولدي راضية صابرة على مُرّ الفراق وشظف العيش.

– ولكن أمك لا ترضي يا نعمان.

– أمي؟!

– زوج أخيك أيضًا، ولدك عتبة!

– ماذ؟ ... قد علمتُ من علم الناس أنَّ الحماة والسلفة لا ترضيان أبدًا عن الكنة ... ولكن ما شأن ولدنا عتبة؟!

– إنه مثلهما يُنكر على أمه أنها ليست عربية.

– ومن أبناءه؟

– لم يُنبهه أحد!

– فماذا قال إذن؟

– جاءني ذات يوم يسألني: إلى أيّ عرب اللازقية تنتسبين يا أم؟

– فكيف كان جوابك؟

– قلت له: إنَّ أباك يعرف، ولم أُزد، فقد خحقتني العترة، ففررتُ من بين يديه إلى خلوتي.

– أَفَهذا ما تقولين إنه يُنكره عليك؟

– نعم!

– لقد أَسأَتِ الفهم يا سبيكة.

- بل قُلْ: يا سَيِّدَة!

- أَوَّه!

- لست أَرِيد مساعتك يا نعمان.

- ولم يُرِدْ عُتْبَةً مساعَتِكَ.

- ففِيمْ كان سُؤالَه ذاك عن نسبي؟

- تلك عادة عربية: أَنْ يفخر الأَبْناء بما يمْتَنُون من نسْبِ الْأَبْاءِ والأَمْهَاتِ.

- وكيف كنْت تراني أَجِيب؟

قال النعمان ضاحكاً، وقد مال عليها حتى خالطْتُها أنفاسُه: قولي له: إنك في أعلى
بَيْتٍ من بني الأَصْفَر.^{١٤}

ونفرت سبِّيكة مبتعدة، وعَضَّتْ على شفتها، ثم أَرْسَلت عينيها وقالت، وقد سرت
وجهَهَا بِكَفَيهَا وبِدُنْهَا يختلِجُ كُلُّهُ: وكذلك أنت يا نعمان ما تزال تقولها!

قال وقد زحف إليها حتى لاصقَها ثانيةً: فماذا كنْت تريدين أَنْ أَقُول إِذن؟

- لا شيء!

- ولكن كُلَّ مسْئُول لا بد أَنْ يجيب.

قالت وقد شرعت عينيها وبرق فيهما بريق عجيب: قل إنك ولدتني ولادةً ثانية ثم
اتخذتني زوجاً!

- وإذن فأنا أبوك وزوجك؟

- نعم.

- ولكنك أنت ولدتني كذلك ثم ولدت لي!

- إذن فأنا أمك وزوجك؟

- نعم!

- وأمك؟

- إنَّ لِكَلْ رجل أَمَّينَ وأَبْوَينَ.

- ولكل امرأة ...!

- فمن أمك الثانية إذن؟

^{١٤} بنو الأَصْفَر: الروم، وهكذا كان العرب يسمونهم.

- أمك!

- ولكنك تكرهينها يا سبيكة فيما أرى!

- بل هي تكرهني.

- وهل تكره الأم ابنتها؟

- نعم، حين تكون كنَّة لها، فتغلبها على أمومة ولدها.

- فهل أيقنتِ إذن أنك قد غلبتها على أمومتها؟ ...

- أيدقت.

قال وقد مَدَ إليها يدًا يُعبثها: فإن طفلك الكبير ... جاءَ يا أم.

فابتعدت عنه مُعجلة وهي تقول: صَه، فإن عتبية قادم.

وسمع وقع أقدامه في الفناء، ثم دخل، فألقى بنفسه بين ذراعي أبيه ...

لم يُعد عُتبية صبيًّا، فقد شبَّ ونما واحضَّ شاربه، وكان قويًّا عريض الألواح

مفتول الساعد حَسْنَ الكف، ولكن في خديه شحوبًا، وفي عينيه زُرقة وعمق، ولصوته

نبرُّ عذب، من يراه ويرى هذين الرجل والمرأة لا يشكُ للنظرية الأولى أنهما زوجان قد

أنجبا، فإن فيه من كليهما وليس لأحدهما من صاحبه شيء ...

ورأى عُتبية فرصةً سانحةً ليتحدث إلى أبيه في أمر يشغله منذ بعيد، ثم استحيا

... فأثر السكوت حتى يُروي في الأمر فيعرف من أين يبدأ ...

ولكن الرجل الكهل لم يكن من الغفلة بحيث يغيِّبُ عنه معنى تلك اللمحات

الغامضة والإشارات المكبوتة التي بدأَت من ولده حين أخذَا في الحديث عن بعض ما

كان هنا وهنالك في أثناء تلك الغيبة الطويلة ...

- إنَّ عتبية قد بلغ مبلغ الرجال يا سبيكة.

- نعم!

- ويرى من حُّقه أنْ يُؤوي إليه زوجة.

- نعم!

- وتغلبِك على أموته أمُ أخرى ...

- تخُفُّ تبعاتي إذن.

- أتؤمنين بما تقولين يا سبيكة؟

- كلَّ الإيمان.

- وإذا لم يجد عندها ما يلتمسُ كُلُّ رجل في امرأته من حنان الأمومة وعطف

الزوجة وإيثار الحب؟ ...

- لن يفتقِد عُتيبة عند زوجِه شيئاً من ذلك.
- تعرَّفينها إذن؟
- نعم!
- حدَّثك بخبرها؟
- حدَّثني عيناه دون لسانه.
- أهي نَوَار بنت عمِّه؟
- من حدَّثك؟
- حدَّثني عيناه كذلك.
- وبماذا أجبته؟
- غضضت طرفِي، واصطنعت الغفلة.
- ولمَّا؟
- أردتُ أن أستنبيء عينيها قبل أن آخذ في الحديث معه.
- ولكن عينيها لا تتحدثان إلى أحدٍ بشيء!
- فكيف عرفت إذن أنها تحبه؟
- إنَّ عيون النساء أَقْدَر على الغوص في أعماق النقوس والكشف عن خَيَّئاتها!
- وغاصت عيناك في أعماقها وكشفتا عن خَيَّئتها؟
- ورأيت صورته في أعماق الأغوار من قلبها، ولكنَّ إطاراً أسود يُمسكها ويُلْقي عليها ظللاً كريها.
- لستُ أفهم ما تعنين يا سبيكة!
- إنَّ أمها لا ت يريد أن يكون زوجها فتَّى هجينَا، يتَدَسَّسُ إليه عرقٌ من الروم، الذين أيتموها جنيناً وأيمُوا أمها شابة.^{١٥}
- ومن أنبأها أنَّ عُتيبة يُمُتُّ إلى الروم؟
- لم يُنبئها أحد!
- فكيف عرفت إذن؟
- ذاك يوم جاء يسألني عن نسيبي.

^{١٥} كانوا سبباً ليتمها، وهي لم تزل جنيناً في بطن أمها، كما كانوا سبباً لأن تفقد أمها زوجها فتترمل وهي شابة.

- قد وَهْمِتْ يا سبيكة.
- وشيء آخر ...
- ماذ؟
- كلمة لا أقولها ...
- بل قوليها ...
- لقد حدثتني أمها ذات يوم أنها لن تزوج فتاتها إلا فتى يمehrها تاج بطريقِ رومي!

- ما أرخصه مهرًا!
- يقتله ويحمل إليها تاجه.
- فهمت.

- ويسوق إليها مع هذا المهر جارية من بنات البطارقة.
- وفيما هذا الغلو؟
- تريد أن تثار لأبيها.
- ولكن أباها لم يمت!
- ماذ قلت؟

لم يكن النعمان يريد أن يُفضي إلى أحدٍ بذلك السر، فإنه لم يَطِب له عيشمنذ حمله، وليس يريد أن يشق على أحبابه بتحميلهم من ذلك ما لا يحتمل هو، ثم إنَّ أمر أخيه لم يزل حدًّا لا يعرف آخرته؛ إلى لقاء سعيد؟ أم إلى خيبة أشدَّ مرارة من ذلك الحاضر المُرّ؟ فلم تك تجري على لسانه تلك العبارة، وتتبعها أمرأته بالسؤال حتى فاء إلى نفسه واستدرك: أعني أنَّ أباها لا يُعرف أين ذهب، فمن أين لها أنَّ الروم قتلتَه؟

- كيف تزعم!
- ولكن هذا الزعم لن يحول بين قلبين تعارفا، فائتلا فأضمر كلُّ منهما لصاحبه مثل ما يُضمر لنفسه.
- وذلك المهر؟
- دعِي ذلك إلى إبانه.^{١٦}

لم يودع النعمان زوجته وولده في هذه المرة قلقاً حيران، قد توَّزعَتْه التبعات؛ فقد خَلَفَ على أهله في هذه المرة رجلين يقumen بأمرهم، هما عتبة ابنه، وبشير ابن أخيه، وقد كشف لزوجه عن ذات صدره في أمور لم يكن لها عن مثيلها من قبل، وتحدث إلى أمه وأمرأة أخيه ولديها أحاديث ذات بال في شئونٍ شتى، لم يُصرّح بكلٍّ ما في نفسه، ولكنه مهَّد تمهيداً لبعض الأمر، ووضع في الأرض الطيبة بذرةً يرجو لها النماء ... ثم وَثَبَ إلى ظهر فرسه ومضى ...

وكان فتى وفتاة يتبعانه بأعين دامعة وقلباهما يَجْفَان، ثم لم يكِد يغيب الراكب المُغَذِّ حتى التقى أعينهما في نظرة طويلة، ثم أنْفَضَت الفتاة رأسها وأنْفَضَ الفتى،^{١٧} واتخذا طريقهما صامتَيْن إلى الدار.

١٧ انْفَضَ: طَأْطَأَ رَأْسَه.

الفصل العاشر

قبر على الطريق

لم تزل الغنائم والأسلاب والأساري تتتدفق على التغور الإسلامية إنما كل صائفة وشاتية، قد ازدحمت بها الأسواق وقلت فيها الرغبة، حتى لبّياع مطْرَفُ الخَرْ بدراهم، وتُشري السبيّة من بنات الأمراء والساسة بديبار، على أنَّ أعظم ما أفاء الله على المسلمين في تلك السنين من غنائم الحرب؛ ما عاد به موسى بن نصیر قائد جيش المغرب من غنائم الأندلس.

هذا موكيه يدخل دمشق في سنة ٩٤ فـيذهل الوالدة عن ولدها ويـلـهـي الصـبـيـ عن طعامه وشرابه.

ذلك أمير الركب موسى بن نصیر في وـشـيـه وـدـيـبـاجـه؛ يتبعه ثلاثون غلاماً من أولاد ملوك الإسبان على رءوسهم التيجان، ويلبسون الثياب مـطـرـزة بـخـيوـط الـذـهـبـ، مـرـقـشـة بـفـصـوصـ الجوـهـرـ، يـسـعـيـ بينـأـيـدـيـهـمـ المـثـاثـ منـ غـلـمانـهـمـ وـخـدـمـهـمـ وـحـشـمـهـ، كـأنـهـمـ فيـ مـوـكـبـهـ الـملـوـكـيـ بـطـلـيـطـلـةـ؛^١ يتـبعـ أولـئـكـ عـجـلاتـ تـجـرـهـاـ الدـوـاـبـ ولاـ تـكـادـ، قدـ رـصـ علىـهاـ ماـ لاـ يـحـصـيـ منـ أحـمـالـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ وـالـجـوـهـرـ وـالـبـيـاقـوتـ، وـالـطـنـافـسـ الـمـنـسـوجـةـ بـقـضـيـانـ الـذـهـبـ الـنـظـوـمـةـ بـالـلـؤـلـؤـ الـغـالـيـ وـالـجـوـهـرـ الـمـثـقـنـ؛ يتـبعـ ذلكـ عـجـلاتـ أـخـرىـ قدـ تـفـسـخـتـ منـ ثـقـلـ ماـ تـحـمـلـ، عـلـيـهـاـ مـائـدـةـ سـلـيـمـانـ بنـ دـاـودـ^٢ قدـ نـقـلـتـ منـ حـيـثـ كـانـتـ فيـ طـلـيـطـلـةـ إـلـىـ عـاصـمـةـ الـدـوـلـةـ فيـ دـمـشـقـ، وـكـانـتـ منـ خـالـصـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ، وـعـلـيـهـاـ ثـلـاثـةـ

^١ طليطلة: مدينة بالأندلس، كانت من عواصمهم.

^٢ يروي بعض أهل التاريخ أنَّ مائدة النبي سليمان كانت في طليطلة، فلما فتحها العرب ملكوا هذه المائدة.

أطواق من لؤلؤ وياقوت وزُمرُد، يتبع كل أولئك موكب الأساري، وعدّتهم أربعون ألفاً من أبناء الإسبان.

ذلك كله هو بعضُ الْخُمْس^٣ مما اغتنم موسى بن نصير في حرب الأندلس؛ فكم جملة ما حصلَ من السبايا والأسارى والمغانم!

قال مسلمة للنعمان بن عبيد الله: أتذكّر ما قال ذلك الراهب يا أبا عتبة؟ فقد رفع سليمان الغطاء عن المائدة للضيوف، أفلًا تظن أنَّ موعد المأدبة قد حان؟^٤

قال النعمان: صدق الراهب وبَرَّ ...

– بل كَذَبَ وفجر، وإن وافقه القدر.

وصمت مسلمة برهة، ثم أردف: وسأخرج إلى الحجاز في عامي هذا فأؤدي
الفرضية، ثم أرجع فَأُعْدُ للغزو عُدَّته، لا أنتظر سبعمائة ولا سبعين ولا سبعة.^٥ ليس
موسى بن نصير ومولاه طارق بِأَوْسَعِ ذَرَّاعَيْهِ من مسلمة، فسنفتح القسطنطينية وننفذ
منها إلى الأرض الكبيرة قبل أن يجاوز موسى بن نصير جبل الزهرة إلى أرض إفرنسة،
وتشهد دمشق موكبًا آخر قريباً يُسْيِي أهل الشام موكب ابن نصير، ويلهיהם عن مائدة
سليمان بن داود!

كان عهد الوليد بن عبد الملك خليقاً بأن يطول؛ فقد ولَيَ الخلافة ولم يزل في باكر
الشباب، وقد عُمِّرَ أبوه عبد الملك وجده مروان حتى جاوزا الستين، ولكن بني عبد الملك
كثير، وكأنَّ كَلَّا منهم قد استقرَّ في وعيه الباطن أنَّ من حقه أن يجلس قدرًا من عمره
على عرش عبد الملك، فلو لا بقيةٌ من الحفاظ على العهد – أو لعلها خشية افتراق الكلمة
– لوثب بعضهم على بعض يستيقون عرش الخلافة؛ فكأنما اقتضت حكمَةُ الله ألا
يُعَمِّرَ الوليد طويلاً من أجل ذلك.

على أنَّ الوليد كان على نية الغدر، فلو لا أنَّ الأجل أُعجله من مأمهِله لجعلها وراثة
لولده دون أخيه ووليّ عهده سليمان؛ وكان يؤازره على هذه النية طائفٌ من أمرائه

^٣ في شريعة الحرب أنْ خُمس الغنائم لبيت المال.

^٤ انظر حديث الراهب الفصل السابع.

^٥ انظر حديث الراهب الفصل السابع.

وبطانته وقاده جنده، فلما بعثه الموت ووليهما من بعده سليمان بن عبد الملك، كانت أشياء تحيك في صدره من بطانة الخليفة الراحل ... وكانت أشياء تحيك في صدورهم كذلك، ولكن مسلمة بن عبد الملك — كما قال أبوه — كان مجنّ هذه الدولة، فردَ سيفاً — كانت مُشرعة — إلى أغمارها، وبصق على الفتنة فانطفأت.

وتهيأ مسلمة للحج، ففرق أصحابه على التغور، وعقد الألوية لأمراء الصائفة، وزعَ الأعطيات في الجندي، ثم سار في موكب فخم ضخم على ظهر الباادية إلى الحجاز، يصحبه النعمان بن عبيد الله ...

ونزلوا ذات يوم للقيولة في بعض مراحل الطريق، ثم نهضوا يستأنفون الرحلة، وكان بالنعمان في ذلك اليوم وجُمع ينْقلُ به، فلا يكاد ينهض، ولكنه لم يطِب نفساً بالتأخُّل، فتحامل على نفسه حتى رَكِب، وأسلم زمام ناقته إلى الحادي،^٦ ثم أخذته إغفاءةً،^٧ فمال برأسه على قَبْت الراحلة، وسبحت به الأحلام في بحر بعيد الشاطيء، فانكشفت له صورٌ من الحياة لم يرها من قبل، ولم تخطر له في وهم، ولا في أمنية ... ثم نشَطَ من إغفائه هذه معافٌ خفيف الحركة، ولكن رأسه مما ازدحم فيه من الأوهام والصور لا يكاد يثبت بين كتفيه ...

واستمر الركب في سُرَاه على ظهر الباادية، والحمدُ يوْقِعون أغانيهم في هدوء الليل، فترجعُ الصخور صداتها عذباً صافِ الرنين لأنّ موسيقى تعزف وراء تلك التلال التي تكتنف طريق الوادي ...

وامتلأت نفسُ النعمان بِشُعراً بليغاً، ولكن شفتية لم تلفظاً بيّتاً، ولم يتحرك لسانه بقافية، واستحالت العواطف الشاعرة دموعاً في أجهفاته، وتراجعت نازاً في رأسه، وكان نسيم الليل بارداً بليلاً، فحبس في عينيه تلك الدموع، ولكنه لم يُطفي الوجه الم��ب في صدره، والنار المشتعلة في رأسه، وبسط صدره ورفع أنفه يعبُ الهواء عبّاً، ولكنه لم يرُو من ظماً أو يبتزه من غلّة؛ فاستحث راحلته حتى تقدّمت فحاذت راحلة أمير الركب مسلمة بن عبد الملك، فهمَ أن يتتحدث إليه حديثاً، ثم أمسك ...

^٦ الحادي: قائد الركب.

^٧ نعسة.

والتفت مسلمة إلى حيث كان النعمان، فرأه فعرفه فبدأه مُحِييًّا: طابت رحلتك يا أبا عتبة.

- طابت لك الرحلة والإقامة يا مولاي.

وكان مسلمة قريب الإفادة من إغفاءة حالة مثل إغفاءة صاحبه، قد رأى فيها رؤيا، وانكشفت له صورٌ من ماضيه وحاضرها، وصور أخرى لم يرها من قبل، وكان النعمان يصحبه في كل مراحل تلك الرؤيا؛ فلم يكُن يُفهِم من إغفاءته ويرى النعمان إلى جانب راحلته حتى أخذَه العجب، فقال وفي صوته نُبُرُ غريب: لأُمِّ ما رأيتَ إلى جنبي الساعَةَ يا أبا عتبة.

- لقد رأيْتُ رؤيا يا مولاي فرغبتُ ...

- رؤيا؟ ...

- نعم، وكان الأمير معِي ...

- معك؟

- أعني أنني كنتُ معه ...

- نعم، نعم!

- ورأيْتَ تضمُّ إليك شابًا فيه ملامح من أبيه فتتملاه طويلاً، ثم تفيض عيناك بالدموع، ولم أكن معكما بعد ذلك، ولكنني رأيت كلَّ ما كان وعَرَفتُ ...

قال مسلمة كالذاهل: نعم، نعم؛ ولكن كيف حدث هذا؟ ...

- قد رأيت ...

- عرفت، ولكن كيف اقتحمت على غفوتي فرأيْتَ ما رأيْتُ؟ ...

- وَيْ! ... هل رأى مولاي مثل هذه الرؤيا؟ ...

فأاء مسلمة إلى نفسه ولم يكُن، فقال مستدرِّكاً: ثم ماذا يا نعمان، فإن حديثك

لعجب!

- حسبتُ مولاي قال إنه رأى مثل رؤياي!

- بل عجبُ أن تكون معِي وأكون معك في اليقظة والمنام ... إنَّ بيننا نسبياً يا أبا عتبة! ...

- وكذلك تراءى لي ...

وهم لسانُ مسلمة أن يسبقه ثانيةً إلى ما لا يريد أن يقول، فأمسك وترك النعمان يقصُّ رؤيَا، لا يزيد على أن يقول له مرة بعد مرَّة: هيه يا أبا عتبة! ...

ومضى النعمان في قَصَصِه: ورأيْتُ ولدي عتبة على رأسي، وقد اخضلت عيناه بالدموع، وكانت أُمّه سبِيكةٌ وراء ظهره، وكان على وجهها ستُّ رقيقة تجول عيناه من ورائه، وكان مجلسك يا مولاي إلى يمين فراشي، ورأيْتُ عيني سبِيكة تستقرّان على وجهك، ورأيْت عينيك تستقرّان على وجهها؛ فثار دمي غيرةً وحَقَّا — ومعدرةً إليك يا مولاي — وهممتُ أن أنهض، ولكن جسدي كان قد ناله يُبُسِّ الموت، وهم لسانني أن ينطِّق، ولكنه لاصق بفُكّي، وكأنما كنتُ أرى بغير عينين، فقد كانت أَجفانِي مُثقلة قد أطْبَقتُ واشتبكتُ أهدابُها، ولكن المنظر — مع ذلك — لم يُزِيلِّي؛ كانت عيناك مستقرتين على وجهها، وعلى شفتِيك كلماتٍ أراها ولا أسمعُها، وبعض الكلمات يُرَى ولا يُسْمع، ثم ملأَتْ عليَّ فَقْبَلَتْ جَبِينِي، وانحدرتْ على خَدَّيك دمعتان، وسمعتك تقول: هُونَ عليك يا أبا عتبة، إِنَّ بَيْنَنَا نَسْبًا وصهْرًا ...

وكانت دمعتان تنحدران في تلك اللحظة على خَدَّي مسلمة، وقد مال على النعمان كأنما يهمُّ أن يُقْبِلَه، لولا بُعد ما بين الراحلتين، ثم قال صوته يختَلِّج: هيَه يا أبا عتبة! — وخافتُ من ثِقلِه، وحَلَقْتُ بعيدًا، وغاب عنِي منظر السماء والأرض، ثم فئتُ إليه، ورأيْتك هذه المرة في خيمَةٍ من ديباج، قد أقيمت في وادٍ أَفْيَحَ قد انبسَطَ الزرعُ فيه على مَدَّ البصر، وانتشرت فيه بيوتٌ من خشبٍ تسرُّحَ حوالِيهَا قطعاً من الجاموس والغنم، وكأنما سمعتُ الأذان والتَّكبير في هذه البيوت المنتشرة بين المراعي الخصبة، فعلمتُ أنني في أرضِ عربية، وأنك صاحبها، فإن صدَّقتَ رؤيَائي يا مولاي، فتلك بضعة من أرض الروم مما يلي القسطنطينية، حيث ينتهي خليج أبي أَيُوب، لقد نزلتُ هذه الأرض ذات مرة في بعض الصوائف ضيًّفاً على أبي أَيُوب، فأطْعَمنِي من ثمراتها وسقاني وأظلَّ مَقِيلِي!

كان مسلمة مُنْصِتاً لحديث صاحبه وهو مسترسل فيما يقصُّ من رؤيَاه: ورأيْتُك في خيمتك هذه التي وَصَفتَ، وقد سيق إليك أَسْارِي من الروم، فأمرتَ بأن تُضرِّبَ أعناقهم، ومَنَّتْ سبِيكة لعيني في تلك اللحظة تَحُولُّ بينك وبين ما تريده من سفكِ دمائهم، فنَوَّلْتَها العفو عنهم ونَوَّلْتَهم العافية ...

وكان بدن مسلمة يختَلِّج، وهو يقول ولا يكاد صوته يبلغ أذنيه: هيَه يا أبا عتبة! — ثم رأيْتك في الرقة، وكان ثَمَّةَ أخِي عُتبةً قد جلس بين ولديه بشير ونوار، ورأيْتُك تُدْنِي عتبةً ولدي منك فتضُمُّه إليك، وعلى شفتِيك كلمات لا أسمعها، وتُفْيِضُ برَّك على أخي وولدي وأهلي جميعًا، لا تستثنِي منهم أحدًا، ثم تمضي وعلى شفتِيك كلمات لا أسمعها كذلك ...

ثم مازا يا أبا عتيبة؟

ـ ثم أراني وإياك على راحلتين في أرض البلقاء، نقصد ذلك الدير الذي لقينا فيه ذلك الراهب ذات يومٍ فحدثنا، ولكننا نجد الراهب قد مات، فنرجحُ محزونين وأنت تقول: قد انقطع الوحي منذ محمد، وما صدق الراهب ولا بُرّ، بل كذب وفجر، وإن وافقه القَدْر؛ ولو لا عُلَالَةٌ نفس تستشرف إلى معرفة ما استسرَ في غدها من غيب الله؛ ما غَبَرْتُ قدميًّا في هذه الباذية التمسُ إلى التسلية سببًا وأنشد راحة نفس.

ـ ثم مازا يا أبا عتيبة؟

ـ ثم أفتُ من إغفاءتي فإذا أنا على هذا الطريق في ركب الحاج إلى مكة، قد شرَّفني مولاي بصحبته وبسط لي معروفة وبِرَّه.

ـ ذاك حُكُم علينا يا أبا عتيبة، ولكن ما شأن ولدك عتيبة هذا وما خبرُه؟ فقد شوَّقْتَنا إليه يا صاح!

ـ فتَّى يخطو إلى الشباب، قد خَلَفَ أباه على أهله، وحَفِظَ عنه الولاء لأميره، فهو غُلامُك يا مولاي وإن لم يكن له حُظُّ الرؤية وشرف المصاحبة.

ـ فقد صار له علينا الحق – إذن – أن نُثبته في ديوان الجُند، وأن نقدِّر له الأعْطية، ونعفيه من عباءِ الجهاد، حفاظًا لعهْد أبيه، واعترافًا بما أبلى في الحرب وما لا يزال يُبْلي ...

ـ بورَك لك يا مولاي!

ـ وببورَك لك يا أبا عتيبة.

ـ ولكن هذه الرؤية التي رأيت ...

ـ اكتمنها يا نعمان، فلا تقصُّها على أحد؛ حتى ندخل المدينة، فنلتَّمِسُ ابن سيرين^٨ في مسجد رسول الله فنقصَّها عليه، فنسأله تعبيرها، وإنني لأرجو أن تكون خيراً بُشِّرتَ به.

ـ وانسِرْح مسلمة في وادٍ سحيق، والهواجس تصطُرُ في رأسه، وانسِرْح النعمان في وادٍ آخر ...

ـ هذه الرؤيا التي قصَّها النعمان على مسلمة لم تكن غريبة عليه؛ لقد تراءت له في إغفاءته تلك القصيرة – كما تراءت لصاحبها، وكما قصَّها عليه – ولو كانت أضفاغَ

^٨ عالم من علماء المسلمين كان له بصر بتفسير الأحلام.

أَحْلَامٌ لَا ترَاءُتْ فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ لِرَجُلَيْنِ قَدْ اخْتَلَفَا نَفْسًا، وَتَبَاعِدَا أَمَالًا، وَتَبَاهِيْنَا فِي
أَسْلُوبِ الْعِيشِ، وَإِدْرَاكِ صُورِ الْحَيَاةِ!

وَخَطَرَتْ فِي رَأْسِ مُسْلِمَةٍ صُورَةُ أَمِهِ وَرَدٍّ، ثُمَّ غَابَتْ فِي حَوَاشِيِ الظَّلَامِ، وَخَفَقَ قَلْبُهُ
خَفْقَةً؛ لَقَدْ خَلَقَهَا فِي دَمْشَقَ مَرِيْضَةً، أَتَكُونُ إِلَيْهَا فِي الْحَلْظَةِ الَّتِي تَذَكَّرُ فِيهَا كُلُّ أَمْ
وَلَدَهَا، وَوَلَدَهَا بَعِيدٌ قَدْ لَفَّهُ اللَّيلُ فِي مَجَاهِلِ الْبَادِيَةِ، فَلَيْسَ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى لِقَائِهَا؟
وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَلَكِنْ نَسِيمُ اللَّيلِ الْهَادِيَّةِ لَمْ يَلْبِثْ أَنْ رَدَّهُ إِلَى نَوْعِ الْهَدْوَءِ
يُشَبِّهُ الْاسْتِسْلَامَ؛ فَاطَّرَحَ كُلَّ مَا كَانَ يَصْطَرِغُ مِنَ الْأَوْهَامِ فِي رَأْسِهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ
مَطْمَئِنًا رَاضِيًّا مُؤْمِنًا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ.

^٩ أَخْلَاطُ أَحْلَامٍ.

الفصل الحادي عشر

لَبِّيْكَ أَبَا أَيُوب!

وعاد ركب الحاج من المدينة، ولم يكن فيه النعمان؛ فقد حضره أجله في مكة قبل أن يُحلَّ من إحرامه^١ وقبل أن يدخل المدينة ليُقصَّ رؤياه على ابن سيرين، ويعرف تأويلها، ولم يقصُّها عليه مسلمة أو يلتمسُ لقاءه؛ فقد كان من رُزْئِه بصاحبِه في هَمٌّ، وكان من الرغبة في سرعة الرَّواح إلى دمشق ليري أمِّه، بحيث لم يمكث في مدينة الرسول إلا بمقدار ما زار ووَفَى الذِّور وفَرَقَ الأَعْطِيَات؛ ثم نادى مناديه في القافلة بالرحيل.

وبلغ دمشق، ولكنه لم يَرِ أَمِّه؛ فقد وَدَعَتْ أُمُّه دمشق وتركت دُنِياها جميًعا قبل أن يعود مسلمة ولدها من حجَّته!

وقد مسلمة أيامًا يتقدِّم العزاء؛ ولكنه لم ينسَ منذ أول لحظة هبط فيها الحاضرة أنَّ عليه حَقًا لرفيقه الذي خَلَفَه تحت الجنادل في صعيد مكة؛ فأرسل رسولاً إلى ولده عتبية في الرقة، وأرسل معه لأسرة الشهيد مالًا وأحمالًا ...

كانت جيوش الفتح قد بلغت شاؤًا بعيدًا في الشرق والغرب: قد قَوَضَ جيش المغرب عرش الإسبان، وحاصر الأندلس من أطرافها، وأخذ يتهيأً للزحف شرقًا نحو بلاد إفرنْسَة، وما يليها من أرض الروم.

وبلغت جيوش المشرق قَرْبَوينَ، ونفذت إلى شواطئ بحر بُنطَشْ. واتخذ أسطولُ العرب قواعد في ثغور بحر الروم يتهيأً منها للوثبة؛ وما تزال بعض سفنَه تغدو وتروح على بحر بُنطَشْ وخليج القَسْطَنْطِينِيَّة، فتصيب من ثغور

^١ مات قبل أن ينتهي من شعائر الحج.

الروم غنائم وأسرى وسبايا؛ وما تنفك قُوَّات الفدائين من العرب المتطوّعة تُغيّر على أطراف بلاد الروم تُشَعِّث فيها، وتذكُّر حصونها، وتنشر بين أهلها الرعب والفزع ... وقد عجزت جيوش الروم عن صد هذه الغارات العربيّة المتتابعة على البر والبحر، وأخذوا بالرعب عن تدبّير أسباب الدفاع عن بلادهم، فساعوا رأياً في القياصرة والبطارقة والأمراء وقادة الجُند، ووقعوا في اضطراب وفوضى ولجاج عنيف؛ فلا يكاد يستقرُّ على العرش قيسْرٌ من القياصرة حتى يُبادروا إليه فيخلّعوه فيقتلوه أو يَسْمُلُوا عينيه ويُجدعوا أنفه،^٢ وينفوه إلى جزائر البحر أو سهول القرى ...

وخلال عرش القسطنطينيّة من قيسْرٍ، وسنحت الفرصة ليضرب العرب ضربتهم الحاسمة، وقال أنسطاثيوس الصالح كاتم سُرّ القيصر المخلوع: قد — والله — أوشك العرب أن ينالوا منا لهم ويملكوا البر والبحر والسهل والجبل، وقد غالب أسطولهم على البحرين ونفذ إلى الخليج، ووطئت جنودهم ساحل «أبيدوس»^٣ وكأنّي بهم قد وثبوا غداً إلى «بيزانت»^٤ و«كيليس»^٥ فنقبوا الأسوار أو تسلّقوها كالجن فإذا هم بين ظهرانينا لا يردهم أحد، وكأنّي بمسلمة على رأس جيشه قد وطئ بلاط قسطنطين، وحطّم تاجه ودنس «أيا صوفيا»^٦ بنعله وكبَّ تمثال العذراء على وجهه!

قال قسطنطين بطريق أبيدوس: بعض هذا أيها الأمير؛ فوالله لا ينالون مَنَا مناً وفينا عرق ينِّيضاً؛ فلَّا يكن دفاعنا عن أرضنا وديارنا وحرياتنا، فليكن دفاعنا عن الصليب وتمثال العذراء.

قال ميناس القائد ساخراً: فهَلَّا دافع قسطنطين عن عرضه؛ إذ سُبِّيت بنته وسيقتا تحت عينيه إلى الأسر فلم يستطِع رَدُّهما، ولم يزل يبكي فقدهما بكاء يعقوب،^٧ لا يكاد يخفُّ لأخذ الثأر؟

^٢ يفقئوا عينيه ويقطّعوا أنفه.

^٣ من ثغور الروم، بالقرب من القسطنطينية.

^٤ من ثغور الروم، بالقرب من القسطنطينية.

^٥ من ثغور الروم بالقرب من القسطنطينية.

^٦ كنيسة مقدّسة من كنائس الروم.

^٧ يعقوب: أبو يوسف الصديق؛ وكان بكاؤه لفقد ولده مضرب المثل.

قال قسطنطين مُغضِّبًا: أَلِي يُقال هذا؟ وما رأيْتُ بطريقًا من البطارقة قد حَمَلَ بعضَ ما حملُتُ من عبء الدفاع عن ذلك التغر؛ فإنْ كانت بنتاي قد سُبِّيتَا واحدةً بعد واحدةً فما قصَرْتُ في الدفاع، ولا عجزْتُ عن الثأر؛ وما طَرَقَ العدوُّ أَبيdos مرةً إلا خَلَفَ نصف جنده على ثراها صرعى، أو أُسَارَى مُقرَّنَين في الأصفاد؛ ووالله ما يخدم أهلي — منذ بعدي — إِلَّا الأساري من سادة العرب!
وكأنما أَجَدَّ هذا الحديث ذكرى أليمة لقسطنطين، ومَسَّ عاطفته حديث بنتيه، فغلبه مدمعه ...

وكان قسطنطين هذا بطريقًا شيخًا، قد نَيَّفَ على السبعين، وكان له — في تلك الدولة — سلطان وجاه، قبل أن يتغلَّبَ على عرشها هؤلاء المغلبون من السُّوقَة والطَّغَام، وكلُّ صاحب أَيْدٍ وكيد، من قيسِر كان غنَّاماً، وآخر كان جابِياً، وثالث كان جندياً في المؤخرة فبرز إلى الطليعة، ثم ترقَّى إلى القيادة، ووُثِّبَ على العرش،^٨ فلما اضطرب حال القياصرة وضعفت مهابتهم في نفوس الخاصة والعامة، وأذنت الدولة بهذا الانحلال الخطير؛ اعتزل البلاط، وعزف عن السياسة وأوى إلى هذه البُلْيَدَة على الشاطيء الأسيوي من خليج القسطنطينية، فحشد فيها أهله وولده وقبيله، واتخذها دار إقامة بعيداً عن مكايِد الساسة ومؤامرات القُوَّاد وتقلبات الحوادث ...

ولكنه — وقد التمس الهدوء في موطنِه هذا الجديد — لم يوفقْ إلى ما أراد؛ فإنَّ غارات الفدائين من العرب لم تزل تناهه من البر والبحر، فلما كانت أيام القيسِر «قسطنطين بوجونات» وحاصرت جيوش معاوية مدينة الروم فطُوقَتها بِرًا وبحرًا بالآلاف من السفن وعشرات الآلاف من الجن،^٩ نزلت أَبِيدُوس سريةً من سرايا العرب فأعجلت أهلها عن الدفاع، وعاثت فيهم عَيْثَا شديداً؛ ففتكت وهتكَت واحتُملت أُسَارَى وسبايا، وكان فيمن سُبِّيتَ «رُودِيَا» بنت قسطنطين نفسه؛ وقد دافع البطريق البطل عن أهله وولده وبلدِه ما استطاع الدفاع، حتى ردَّ العرب على أَبِارَهِم، ولكنه لم يستطِعْ أن يستخلص فتاته السبَّيَّة، وحُمِّلت فيمن حُمِّلَ من الأساري والسبايا إلى دمشق ...
وتتابعت غاراتُ العرب — بعد ذلك — على هذا الحصن الصغير كلَّ صائفة وكلَّ شاتية، ولكن قسطنطين لم يُقْصِرْ في الدفاع مرة ...

^٨ كذلك كانت حال القياصرة في تلك السنين.

^٩ هي غزوة ذات الصواري، وانظر الفصل الأول.

فلما كانت أيام جوستينيان الثاني — بعد استباء بنت قسطنطين بعشرين سنة أو يزيد — وبدا للروم أنَّ الدولة العربية في الشام قد أشرفت على الانحلال — أيام عبد الملك^{١٠} — لِمَا يتوزعُها من أسباب الخلاف وما ينشب فيها من الفتنة، كان قسطنطين أول من كتب الكتائب الرومية لاحتياج الفرصة السانحة، ودعا الروم إلى التطوع للجهاد، وكانت الفرقة التي ألهَفَها من بنيه وبني إخوته ومن شباب أبيدوس أول فرقه رومية وطئت ثغر أنطاكية وأوغلت في أرض الشام، ثم كان الصلح بين عبد الملك وجوستينيان الثاني؛ فارتَّ الروم مُصحررين أو مبحرين^{١١} إلى بلادهم، ولكن قسطنطين لم يرتد حتى أصاب غنائم وأسرى مصفَّدين في الأغلال يسوقهم إلى أبيدوس؛ ولو لا أنَّ جوستينيان أمره فأغْلَظَ في الأمر لما عاد حتى يُثْخَنَ في بلاد العرب، ويبلغ من العلم عَمَّا آل إليه أمر ابنته التي استباهها العرب منذ نَيْفَ وعشرين سنة، ولكنه — مع ذلك — قد ارتد بأسارى يرجو أن يبقوا عنده رهائن إلى يوم قريب أو بعيد.^{١٢}

وكان الشاطيء الشمالي من خليج القسطنطينية قبلة الغزاة العرب في كل غارة، حيث يثوي أبو أيوب الأنباري؛ يهاجرون إليه لينزلوا عليه ضيوفاً في داره هذه التي اتخذها مَثْوىًّا إلى يوم يبعث الله الموتى، فكانت أبيدوس لذلك طريقاً لهؤلاء الغزاة المغirين، يُبَيِّنُونَها^{١٣} بِرًا وبحرًا في الذهاب والعود، ويصيبون من أهلها، ويصيب أهلها منهم؛ فلم تنتقطع الغارات عليها صائفة وشاتية، ولم يكف قسطنطين عن النضال! ثم كانت غارةً من تلك الغارات الباغنة، أثخن فيها العرب في الروم إثخاناً شديداً، واحتملوا أسارى وسبايا؛ وكان من بين السبايا ابنة أخرى لقسطنطين، لم تنضج نضج الأنثى، ولكنها جاوزت حدَّ الطفولة ... وافتذ العرب فلذةً أخرى من كِيد الطريق المرَّ ... هل كان الطريق قسطنطين يجاهد العرب منذ ذلك اليوم ثأراً لابنته السبئتين، أو ثأراً لوطنه، وكفاحاً عن أمجاد قومه؟ من يدرى؟ ولكنه — على أيِّ حالٍ — لم يكُفَّ عن النضال.

^{١٠} انظر الفصل الأول.

^{١١} في الصحراء أو في البحر.

^{١٢} انظر الفصل الثامن.

^{١٣} يفاجئونها في الليل.

لَيْكَ أباً أَيُوب!

وهذا القائد ميناس يُعِيرُهُ بسبى ابنته، ويوشك أن يتهمه في وطنيته وفي شجاعته
ومصابرته، فيدافع دفاع الغضبان، ثم لا يلبث أن يغلبه الدمع.
يا للبطريق الشیخ! دَرِیَةٌ من درایا قومه^{١٤} يتلقّى عنهم سهام العدوّ، ففي كل
موضع منه جراحة لم تلتئم، ويتهمه قومه بالجبن والخوار...!
وابناته ... أين همااليوم؟

أَحْظَيْتَانِ فِي بَعْضِ بَيْوَاتِ الْأَمْرَاءِ وَالسَّادَةِ، أَمْ جَارِيَتَانِ مُمْتَهَنَّانِ فِي بَعْضِ بَيْوَاتِ
الرّعَاعِ وَالسُّوقَةِ؟

أَوْلَدْتَا لِبَعْضِ الْعَرَبِ جُنْدًا يُشَهِّرُونَ السَّيُوفَ فِي وُجُوهِ بَنِيِّ الْخَالِ وَالخَالَةِ مِنْ
سَادَةِ الرُّومِ؛ أَمْ آثَرْتَا الْمَوْتَ عَلَى ذُلُّ الْإِسَارِ أَوْ آثَرْهُمَا الْمَوْتُ؟
أَتَذَكَّرَاهُ كَمَا يَذَكُّرُهُمَا مَعَهُ الْإِخْوَةُ وَالْأَخْوَاتُ وَبَنُوِّ الْأَعْمَامِ وَالْعَمَّامَاتِ، أَمْ
اسْتَبَدَلْتَا فِي الْعَرَبِ أَهْلًا بِأَهْلٍ؟ وَبَاعْتَا بِالسَّيِّدِ وَالْوَلَدِ الْأَبَّ وَالْأُمَّ وَالْإِخْوَةِ وَالْأَخْوَاتِ؟
فِي أَيِّ الْبَلَادِ تَعْيَشَانِ؟ أَوْ فِي أَيِّ الْأَرْضِ سُوَّيَ عَلَيْهِمَا التَّرَابُ؟
ابنَا الْبَطِرِيقِ الْمُعَظَّمِ، جَارِيَتَانِ قَدْ انْقَطَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الْأَسْبَابُ؛ فَيَا لَهُ مِنْ
الْفَجِيْعَةِ فِي ابْنِيَّهِ، وَيَا لَهُ مِنْ بَذَاءَةِ بَعْضِ قَوْمِهِ!

قال أنسطاثيوس الصالح: هُونَ عَلَيْكِ يَا قَسْطَنْطِينِ؛ فَقَدْ عَلِمَ — وَاللهُ — كُلُّ رُومِي
فِي هَذِهِ الْبَلَادِ بِلَاءَكَ فِي جَهَادِ الْعَرَبِ؛ فَلَا عَلَيْكِ مِنْ قُولٍ لَمْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ إِلَّا الْغَيْرَةِ.

وَبُوْيِعُ أَنْسَطَاثِيُوسُ قِيَصِّرًا؛ فَرَاحُ يَحَاوِلُ مَا يَحَاوِلُ لِتَدْبِيرِ أَمْرِ الْبَلَادِ وَتَنْظِيمِ قَوَافِعِ
الْدِفَاعِ، وَلَكِنْ غَارَاتُ الْعَرَبِ الْمُتَتَابِعَةُ لَمْ تَتَدَعُّ لَهُ فَرَصَةً لِلتَّدْبِيرِ وَلَا لِتَنْظِيمِ قَوَافِعِ الدِّفَاعِ؛
فَنَالُوا مِنْهُ وَلَمْ يَنْلُ مِنْهُمْ، وَتَوَالَّتْ هَزَائِمُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَاعْتَزَلَ الْعَرْشُ إِلَى بَعْضِ
الْأَدِيَارِ حَزِينًا أَسْوَانَ، يَلْتَمِسُ فِي الْصَّلَوةِ وَالدُّعَاءِ بَعْضَ السُّلُوانِ.
وَوَثَبَ إِلَى الْعَرْشِ سُوقِيُّ آخْرُ كَانْ جَابِيًّا لِلْخَرَاجِ فِي بَعْضِ الْأَقْلَالِ؛ فَلَمْ تَكُنْ حَالُ
الْبَلَادِ فِي عَهْدِهِ خَيْرًا مِنْهَا فِي عَهْدِ أَسْلَافِهِ، وَاضْطَرَبَ بِهِ الْأَمْرُ وَأَحْاطَتْ بِهِ الْأَحْدَاثُ ...
وَكَانَ الْعَرَبُ — وَقَتْئِنِ — يَتَأَهَّبُونَ لِلْغَارَةِ الْكَبِيرِيَّةِ تَحْتَ رَأْيَةِ مُسْلِمَةِ ...

^{١٤} قوَّةُ مِنْ قَوَّى الدِّفَاعِ عَنْ قَوْمِهِ.

كان سليمان بن عبد الملك في بستانه، قد رمى نفسه على الرمل بلا وطاء يَبْتَرُدُ من حرّ ذلك النهار، وإلى جانبه زِنْبِيلان قد مُلِئَا بِيَضًا وَتِينًا، فهو يمْدُّ يده إلى زِنْبِيل بعد زِنْبِيل، يأخذ من هذا ومن ذاك بيضةً وتينًا بعد بيضة وتينة، حتى أتى على الزنبيلين وما شَيْءَ، ثم أَلْزَقَ بطنَه بالرَّمْلِ، وهو يقول: ما أَحَبَّ إِلَيْهِ هَذِهِ الْمَنَامَةُ وَأَبْرَدَهَا فِي هَذَا الْيَوْمِ الْقَاتِظِ! ثم أَتَوْهُ بِغَدَائِهِ: جَدِّي مشوّيٌّ كأنه عَكَّة سمن، ودجاجتان هنديتان كأنهما رَأْلَا النَّعَامِ، وَعُسْنٌ يغيب فيه الرأس، قد امتلاه حريقة كأنها قراصنة الذهب، ثم صُفٌّ بين يديه ثمانون قدرًا مختلفة الألوان ...^{١٥}

واعتلد سليمان في مجلسه، وأقبل على الجدي المشوي فأتايه، ومال على الدجاجتين يأخذ برجل واحدة بعد واحدة، فيُلْقِي عظامها نَقَةً، ثم جعل يقلع الحريرة بيده، ويشرب ويتجشأً كأنما يصبح في جُبٍّ، فلما فرغ من ذلك مال على القدور الثمانين يكشف عن أغطيتها قدرًا بعد قدر، فيأكل من كل منها لقمةً أو لقمتين أو ثلاثةً ... ثم مسح يديه واستلقى ...

قال له مسلمة: أَمْتَعَكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمْتَعَ بِكَ! ...

- وَيُكَيْنَ يَا مُسْلِمَةً، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَدِيدٍ؟

- نعم، فإِنَّ هَذِهِ الرُّومَ عَلَى مَا تَرَى مِنَ الْخُضْعَفِ، وَاحْتِلَافِ الْأَمْرِ، وَهُوَانِ الْمَنْزَلَةِ، وَلَمْ يَبْقَ ثُغْرٌ مِنْ ثُغُورِهِمْ مَا يَلِي بِلَادَنَا إِلَّا وَطَئَهُ جُنُدُ الْعَرَبِ وَجَاسُوا خَلَالَهُ، وَلَا حِصْنٌ مِنْ حَصْنِهِمْ إِلَّا شَعَثَتَاهُ، حَتَّى تَطَامِنَ مِنْ شَمْوَخٍ، وَاسْتَبْرِيَّ بَعْدَ مَنَعَةٍ؛ وَإِنِّي أَرَى الْأَوَانَ قَدْ آتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْخَرْبَةِ الَّتِي تَدْكُّ حَصْنَهُمْ وَأَسْوَارَهُمْ، وَتَبْيَحُ أَرْضَهُمْ وَحَرَيْمَهُمْ، وَتُعْلِي كَلْمَةَ اللَّهِ فِي تِلْكُ الْأَرْضِ الْكَافِرَةِ.

- وَعَتَدْتُكَ وَجَنْدَكَ؟

- عَلَى الْأَهْبَةِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، عَشْرُونَ وَمَائَةً أَلْفَ فِي الْبَرِّ، وَمِثْلَهَا فِي الْبَحْرِ.

- وَسَفَنُ الْغَزوِ؟

- ثَمَانِمَائَةُ وَأَلْفُ سَفِينةٍ تُطَاوِدُ الْمَوْجَ وَلَا تَنْطَادُ فَوْقَهَا السَّحَابَ!

- وَالنَّارُ الرُّومِيَّةُ يَا مُسْلِمَةً؟

- لَنْ تَنَالْ مَنَا مَنَالًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ تَوْهِنْ لَنَا عَزِيمَةً.

^{١٥} كان سليمان أكولاً بطيناً لا يكاد يشع.

- وتلك الأسوار المُمَلَّسة لا يقف عليها الذُّرُّ، الشامخة قد ركبتها السحب؟
- سيفتحون لنا الأبواب طائعين حين يضرُّ بهم الحصار، فلا تكون أسوارهم هذه إلا سجنًا لهم لا يملكون مُنصرفًا عنه.
- ولكن الحصار لا يضرُّ بهم من قريب يا مسلمة، وعندهم من الزاد والأقوات، ومما تمدُّهم به أمم النصرانية في الأرض الكبيرة، وما يعاونهم به البلغار من غلَّات بلادهم؛ ما يطول معه الأمد!
- ستصابرهم حتى ينفد المذكور، ويُنْكِل الصَّبور، ويتسَلَّل الجبان، ويُسَأَّم الأعون، وينقطع المدد.
- وشتاؤهم الذي يُحَمِّد الأطراف، ويوجِّب الـ^{الـ}؟
- سنبني حول الأسوار بيوتًا كبيوتهم، ومصانع خيرًا من مصانعهم، ونتخذها دار إقامة حتى يفتح الله علينا، وتسقط في أيدينا مدينة قسطنطين.
- وطعم الجيش وزاده، والطريق إليكم طويل، والبر مُوحش والبحر هائج؟
- سيكون لنا هناك زرع وضرع ومرعى وماشية.
- أراك يا مسلمة تحاول عظيمًا من الأمر!
- كلُّ عظيم يا أمير المؤمنين، فأنت أعظم منه!
- الله يا ابن عبد الملك، إنك لتنكر قدرك، ولو لا أن سَبَقَ إلَيْكَ عَهْدُ أمير المؤمنين عبد الملك لكتَّ أَحَقَّ بها وأهلاً لها.^{١٦}
- ولكن الدولة عربية يا أباً أَيُوب.
- وأنت مسلمة بن عبد الملك.
- بل أنا ابن وَرْد.^{١٧}
- فهل ترى ولد عبد الله بن عمر قد نقص من قدره شيئاً أَنَّ أمه من بنات سابور؟^{١٨}
- قد سمعتهم يمزحون فيقولون: إنه أَحَقُّ بعرش كسرى.

^{١٦} يعني الخلافة.

^{١٧} يعني أنه ابن جارية رومية: فليس له حق في ولاية عرش العرب.

^{١٨} تزوج عبد الله بن عمر بن الخطاب إحدى بنات سابور، كسرى من أكاسرة الفُرس، فولدت له، وكان ولدده منها مكانة لا يجددها قومه.

- فأنت إذن أحق بعرش قيصر!^{١٩}
- ها أنت ذا قد قلتها يا أبو أيوب.
- والله لولا أني لا أملك أن أخلع نفسي، وأنضو قميصاً قد قَمَصَنيه خليفة رسول الله^{٢٠} لرضيتك - طيب النفس - أن تجلس مجلسي على عرش عبد الملك، وإنك لاعظم في نفسي مهابةً، وأدنى إلى قلبي منزلةً من ولدي أيوب.
- أمتلك الله به يا أمير المؤمنين، حتى تُبَايِعَ له بالعهد من بعده، إنَّ أيوب ابن أمير المؤمنين لريحانة هذا البيت، وإنني لأرجو أن يكون له شأن في عدده.
- طاب فائك يا أبو سعيد!
- وطاب عهده! إنك بأيوب ليكون الكنية؛ فكأني بك أردت أن يكون أبو أيوب الأنصاري أول من يبلغ أسوار القسطنطينية من العرب، وأن يكون أبو أيوب الأموي^{٢١} أول من تفتح له بابها، فيطأ بفرسه بساط قيصر، ويُحطم أصنام الشرك في كنيسة أيا صوفيا، ويُجْهَر بالآذان في أكبر بيعة من بيع النصرانية.
- طابت نفسي والله لحديثك هذا يا أبو سعيد، وإنني لأرجو أن يكون ما قلت، فخذ في أسبابك منذ اليوم، والله معك.

^{١٩} يعني: على هذا القياس تكون أحق بعرش قيصر الروم؛ لأنَّ أملك منهم.

^{٢٠} قَمَصَنيه: ألبسنيه؛ والمعنى أنه لولا أن عبد الملك خليفة رسول الله قد ألبسني قميص الخلافة لرضيتك ...

^{٢١} يعني سليمان نفسه ...

الفصل الثاني عشر

وفاء بذمة ...

لو لم يسبق الأجل إلى ورد أم مسلمة لقررت اليوم عيناً؛ فسيبلغ مسلمة عرش قيصر، ويطأ بساطه، ويلبس تاجه، وتدين له تلك البلاد جميعاً بالطاعة والولاء؛ ولكنه يتلفتُ حالياً فلا يرى أمه، ولا تراه أمه، لقد فرغت من الدنيا قبل أن تكتحل عيناهما برؤيه ولدتها مسلمة في الموضع الذي كانت تأملُ أن تراه فيه ...

ولكن صورة أخرى تتراهى لعينيه الساعة: صورة فتى عربي في وجهه شحوب، وفي عينيه زرقة وعمق، ولصوته نبرٌ عذب، فيه مخايل من صديقٍ له قد مات منذ قريب، وغيّبته الصفائح في البلد المحرّم ... وإلى جانبه امرأة مُنتقبة شابة تجول عيناهما وراء ستِّر شفيف، تُجذب لها نظراتها ذكري، فلا يكاد يكف عن النظر إليها، ولا يُخجله من ذلك أنَّ ولدتها الشاب إلى جانبها، وأنها أرملة صديق قد مات منذ قريب ...

تلك الصورة قد رأها ذات مرة في الْحُلم، كأنَّ قد أبصرها بعينين، ثم سمع صديقه يقصُّها عليه – كما رأها – فوعاها بأذنين، وها هي ذي تتخايل لعينيه الساعة يقطان، فكأنما هي صورة في إطارٍ ما تزال تقع عليها العينُ مرة بعد مرة، فلا تُنكر من ملامحها شيئاً!

وتحضره إلى جانب هذه الصورة ذكرياتُ أخرى وصورٌ شتَّى وأحاديث متباعدة، فلا يكاد معها يتحقق أمراً مما يردد على خاطره!

لقد كان لأمه معه ذات يوم حديثٌ ما يزال صداح في نفسه؛ فإنه ليذكره كلما خطرت القسطنطينية في باله، أو أزمع مع الروم حرباً ...

وكان له ولصاحبه النعمان حديثٌ آخر مع الراهب الشيخ، في الدير المنفرد في أرض البلقاء، ما يزال صداح يمتزج بصدى حديثه إلى أمه ...

وتلك الرؤيا ...

ثلاثُ صور تتنازَّه وتلتَّحِم وتتَّمَاسُ أطْرُها، فلا يَبْيَن منظرٌ من منظر، ولكن وراء اجتماعها صورة أخرى لم تَرَها عيناه بعد ... فلعله يراها أو يرى تأویلها حين يدخل القَسْطَنْطَنْطِينِيَّةَ ظافرًا على حصانه!

إنَّ الحقيقة الناصعة التي يُنْشِدُها من وراء هذه المُعْمَيَات قد تمَّزَقَت الصحفة التي تقصُّ خبرها، فشطَرُ منها في القسطنطينية، وشطَرٌ في يده، فإذا لم يوافق هنالك شطرٌ الصحفة التي يجد فيها تمام ما يعلم فلا بد أنه واجهُ عند الذين يتوارثون علم الملاحم من رُهْبَان القسطنطينية.

وكان عتيبة بن النعمان في لهو الشباب، حين جاءه نعي أبيه، فغمّه ذلك غمّاً ردّه في الشباب إلى الكهولة.

وبكت الأم العجوز ما شاءت أن تبكي، فذكرته وذكرت أباه وذكرت أخيه عتبة، ثم
فأعات إلى الصبر والرضا بقضاء الله، راجية في حفيديها بشير وعتيبة ما كانت ترجو عند
ولديها اللذين مضيا، وخلّفتها في وحدتها هذه الموحشة تجثّ ذكرياتها السعيدة والمؤلمة
وأحزانها المتعاقبة.

وبكت زوجه حتى غارت عينها وزادت نحوًّا وشحوباً، وضاعف الحزن انقباضها
عمن معها في الدار، فانطوت على ما في نفسها من آلامٍ يعرف منها من يعرف طرفاً،
ولكن سائرها لم يطلع على غيبه أحد!

وبكت نوار؛ فقد كان النعمان أباها وعمّها جميعاً، وقد حمل على كتفيه عباء الثار لأبيها، فلم يزل ينشدُ في كل مهلكة حتى أدركه أجله، ثم إنه إلى ذلك كله أبو عتيبة، وحسِبَها ذلك سيناً إلى الحزن لا تغفر، مدامعة ...

وَسَفَرْتُ نوارُ عَنْ وِجْهِهَا مِنْذُ جَاءَهَا النَّبِيُّ بِمَصْرُعِ عَمَّهَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبِهَا: قَدْ مَاتَ أَبُوكَ بَا عَتَّيْبَةَ، وَعَلَيْهِ نَذْرٌ لَمْ يَتَهَّأَ لِهِ الوفَاءُ بِهِ.

- نعم، الثأر لأبيكِ برأس بطريق من بطاقة الروم، أو الثّواء تحت أسوار القدسية في ضيافة أبي أيوب.
- وترى دفءاً بهذا النذر ما عتبة؟

- وأزيد عليه يا نوار، أن آتيكِ بتاج البطريق وأخذِكِ ابنته.^١
وتضَرَّجَت وجنتها، وقد فَهَمْت ما يعنِيه، فقالت وقد غضَّت من بصرها: الثَّارُ أَوَّلًا
يا عتبة.

- بل نذرُ أبي يا نوار، أمَّا ثَارُ أَبِيكِ فلولا نذرُ مات النعمان ولم يفِ به لكان أخوك
بشير جديراً بأن يحمل عباءً.^٢

وساءها أن يُعِيرَها بأخيها وضعفِ همته وإيثاره الدُّعَة، ولكنها لم تغضب، فقد
سَرَّها أن يكون عتبة بحيث أراد أن يصف نفسه، فقالت: النذر والثَّار جميعاً يا عتبة،
فذلك ميراثُ أبيك.

- لو لم يكن ميراث أبي لكان أمراً من نوار واجب الطاعة، وما يكون لي أن أنكُصَّ
أو أُرْوَيَ في أمري^٣ يا ابنة العم، لو أثْنَكِ أمرتيني أن أثبَ إلى النار الموقدة لأقْبُسُ لكِ منها
جذوة ملتهبة، أو أخوض في بحرِ من الدم لآخرُجُ لك لؤلؤة حمراء، أو أتطوَّحُ في مهاوي
الريح لأرْدَ إلَيْكِ صدى أغنية عذبة ملأت نفسكِ، فلا تريدين أن يُفْلِت صداحاً في الزَّمن!
- كذلك أنت يا عتبة؟

- بل اسأليني يا نوار: كذلك أنا في نفسكِ يا عتبة؟

- وتكلمت عنِي؟

- بل أنتِ تعرفي، وتُصرِّفين – مع ذلك – على الكتمان.

- ألم تكن تعلم ...؟

- كنت أعلم علمِ نفسي يا أخيَّة، وأهابُكِ أن أسألكِ عن علمِ نفسكِ.
- فقد علمتَاليوم.

- وقد علمتِ أنتِ يا نوار.

- ليتني لم أعلم.

- هل ساءكِ إذن أن تعرفي أنني أحُبُّكِ؟!

- بل ساعني أن أعلم ذلك حين أنتَ على أهبة الرحيل عنا يا عتبة.

^١ انظر حديث النعمان وزوجته الفصل التاسع.

^٢ يعني أن ابن عمِه أولى منه بالسعى لطلب ثَارُ أبيه.

^٣ أتائَيَ في أمري.

- ولكنك أنت التي ت يريد أن أرحل؛ لأدرك ثأراً وأوفي نذراً ...
- وماذا يا عتبة؟
- وأجمع مهراً يا نوار!
- ولكن بقاءك أحُبُّ إليَّ.
- وأحُبُّ إليَّ يا نوار، ولكن الدم المطلول يطلب واترها.^٤
- قد أخذ أبوك بيُتره، وقتل أخيه رجالاً، وأطاح برأس رعوساً.
- ولكنه لم يحمل إليك رأس بطريق وтاجه.
- ولكنني أخاف عليك يا عتبة.
- فلست إذن أهلاً لحبك يا نوار.

ثم انقلب عتبة إلى حيث كانت أمه سبيكة: أمي.

- ولدي عتبة!
- إنني ذاهب.
- إلى أين يا عتبة؟
- إلى حيث ذهب عمّي وأبى.
- ولمَّنْ تدع أمك يا عتبة؟
- تعالى معي - إن شئت - فلن تقدر بي أمومتك عن الجهاد!
- ولكن الأمهات لا يصحن أبناءهن إلى الحرب!
- فما هؤلاء النساءُ وراء كل جيش محارب؟^٥
- زوجات لأزواجهن، وأخوات لإخوتهن، يدفعنهم حرارة الحب إلى الاستبسال في النضال ليكسبوا الحظوة عندهن، وما أنا وذاك يا عتبة، وقد جاوزت تلك المنزلة؛ فليس إلى مشتاق ولا وامق؟
- تُعوّقيني إذن؟
- ولمَّه؟
- لأنك ... لست أدربي!

^٤ الاتر: طالب الثأر.

^٥ انظر الفصل الثالث.

وفاءً بذمة ...

- بل تدري شيئاً تحاول كتمانه؟
- فلِمْ تُعوّقيني إذن؟
- لأنني أُمك.
- وكل هؤلاء المجاهدين لا أمهاط لهم؟
- ولأنني في هذا الحي من العرب لا عم لي ولا خال.
- أراكِ لا تحاولين الكتمان.
- ماذا تعني يا عتبة؟
- أنت تكرهين أن أشرع في وجه الروم سيفاً!
- ولمَ؟
- لأن لكِ في الروم عما وحالاً.
- إنني أُمك يا عتبة.
- قد علمتُ.
- وذلك كلُّ نسبي.
- وترضيَنَ أن تنتسبي إلى جبان لا يخُفُ لثار عمه، ونذر أبيه؟
- ومهر امرأته! ...
- قد عرفتِ إذن؟
- ومن أجل هذا منعتكِ يا عتبة.
- من أجل أنكِ لا تحبين نوار!
- بل إنني أحبهَا، وأرى ولدي بها أسعد زوج.
- ومن أجل ذلك تحولين بيسي وبينهَا!
- بل أحول بينك وبين اقتحام المخاطر من أجل امرأة، ليست هذه هي البطولة.
- فما البطولة إذن فيما ترين؟
- ألا تطيع فيما تكره امرأة تحبها، وأعلى من ذلك مرتبة في البطولة أن تُقسرُها على طاعتكِ.
- ولكنني لم أُطعها!
- ففيَمْ خروجُك إلى الحرب إذن؟
- وفاءً بندر، وإدراكاً لثار ...
- وطاعةً أمر ...

- بل عصيًاناً ...
- لأمرِي؟
- لأمرِ نوار.
- كِيف؟

- لقد منعْتني من أن أخرج فعصيت.

- وَيُ!

- وَقَسْرُّتها على طاعتي.

- لقد كان لك — إذن — معها شأنٌ يا عتبة!
- نعم، وسأعصيك كما عصيَّتها.

- تعصيني؟

- نعم، وأقسرك على طاعتي.
- وتقسرني أيضًا؟

- نعم؛ لأنني أحبك يا أم.

- إنك لبطل يا عتبة.
- لأنك أنت ولديني يا أمًا.
- بل؛ لأن أباك النعمان.

وشرقت سبيكة بدمها، فأخذت رأسها في صدر عتبة وأجهشت باكية.

الفصل الثالث عشر

نفير الحرب

أَرْوَحُ إِلَى الْقُصَاصِ كُلَّ عَشِيَّةٍ أَرْجِي ثَوَابَ اللَّهِ فِي عَدْدِ الْخُطَا

قالت العجوز التكلى: إنني لأجد ريح عتبة والنعман، وأسمع رجع غنائهم، فانظروا لي من ذلك الذي يرجح هذا الصوت، وإنني به لبعيدة عهد.

قالت نوار: ذاك عتبية، ما يزال منذ أيام يرجح هذا الصوت غاديًّا ورائحاً ...
– رحم الله أباه وعمه، وبورك لي فيه وفي بشير، لقد أذكرني غناوه أباك وعمك يا نوار؛ إذ كانا يرددان هذا الصوت كلما غدوا على المسجد أو راحا، فإن هؤلاء القصاصون الذين يغشون مساجد مصر للوعظ، والتذكير، ورواية الأخبار والتواتر ليوهمنون من يغشى حلقاتهم من الفتيا أن يوماً في مجلسهم ذاك خيرٌ عند الله من سبعين صلاة، فما يزالون يجتنبونهم بهذا الخيط الدقيق حتى يلزموا حلقاتهم، ثم لا يزالون ينفثون في عقدهم من سحر القول حتى يسوقوهم إلى المنيا باسم الجهاد في سبيل الله.

ودخل عتبية خفيف الخطأ، فسمع، فقال: ماذا تقولين يا جدة؟ أحرامُ أن نغشى المساجد، وأن نستمع إلى القصاصون، وأن نخرج مجاهدين في سبيل الله؟!
– لم أقل هذا يا بني.

– فما هذا الذي سمعت من قوله؟
– لقد قلت إنَّ في عتبية ملامح من أبيه، وفي صوته أيضًا، وكان أبوك ينشد هذا الشعر إنشادك كلما غدا على المسجد أو راح، ثم ذهب إلى الميدان البعيد، فلم يُعد، كما ذهب أخوه من قبل، طار على جناح شاعر، ثم وقع ...

- ولكن عتيبة سيطير فلا يقع.

- لقد همت إذن؟

- نعم.

- وتعرف سبيكة أنك ذاهب لحرب الروم؟
- قد عرفت.

- وطابت بذلك نفسها؟

- قد طابت نفسها ورضيت.

- حسبتها تأبى أن يشرع ولدها سيفا لحرب الروم.
- ولمَّا؟

- لأن ... لأنها قد عرفت ما حرب الروم.

- لم أفهم!

- أعني أنها كانت خليقة بأن تُشفق عليك.

- على؟ ...

- وعلى غيرك.

- من تعنين؟

- رجوت أن تشفق أمك عليك وعلينا، من سوء ما ينالنا به فراقك.

- بل عنيت معنى آخر يا أم!

- أي معنى؟

- تسأليني؟

- لقد ظننتني أضمِرُ وراء كلماتي معنى غير ما فسرت لك، فسألتُك ...

- بل إنك لتضمِرين معنى آخر ...

وكانت نوار صامتة تستمع إلى ما يدور بين الفتى وجدته من حوار بدأ رفيقا هينًا،

ثم أوشك أن يكون خصاماً، فقالت في رقة: إن جدتك لتعرف حميتك يا ابن عم، ولكنها تُشفق عليك وتجزع لفراقك، وإنك لتذكر ما قلت لك قبل أن تتحدث إليك جدتك ...

فاعتدلت الجدة في مجلسها، ونظرت إلى نوار قائلة: هل قلت له؟

- حاولت يا أم أن أحول بيته وبين ما اعتزم، فلم يستمع إلى.

- أكذلك يا عتيبة؟

- نعم.

- ورضيَتْ أمك؟
- كانت أدنى إلى الرضا من نوار، ومنتك.
- وأذنَتْ لك أن تشرع سيفك لحرب الروم؟
- وإنِذنَتْ لي طيبة النفس.
- ولم يسُؤها أن يفارقها ولدها إلى حيث تتوزَّعها الهواجس والهموم، وتصرطع في نفسها المخاوف؟

- بلى، قد ساعها، ولكنها قد علِمتْ أنه حق البطولة على كل عربي.

قالت نوار: بل حق البطولة على كل أمٌّ عربية.

قالت الجدة: قد صدقت سبيكة وبرَّتْ.

ثم أطْرَقَتْ وهي تقول، وقد جال في عينيها الدمع: فاذهب مأجورًا يا عتبة والله يكلوک.^۱

وقف عتبة في فناء الدار مُشَمِّرًا حاسر الذراعين يشدُّ متاعه إلى ظهر راحلته وهو يُنشِدْ:

أَطْنُ لِمَحْمُولٍ عَلَيْهِ فِرَاكِبَه
إِذَا جَدَ جَدُّ الْبَيْنِ أَمْ أَنَا غَالِبُه
فَمَثْلُ الْذِي لَاقِيتُ يُغَلِّبُ صَاحِبُه
وأَشْفَقُ مِنْ وَشَكِ الْفَرَاقِ إِنِّي
فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَيْغَلِبُنِي الْهُوَى
فَإِنْ أَسْتِطِعُ أَغْلِبُ وَإِنْ يَغْلِبُ الْهُوَى

وكانت عيتان دامعتان ترقبانه من وراء السَّجف، حيث تورات الفتاة موجعة القلب
تراه وتسمع نشيده من حيث لا يراها ولا يسمع نشيجه ...
وبغتها سبيكة، فوضعت راحةً على كتفها، وهي تقول في رقةٍ وعطف: أنت هنا
وهو هناك، فهلا ترأيت له لتشدّي عزمه ساعة الفراق؟
قالت الفتاة وأطْرَقَتْ مُسْتَهْبِيَةً: خشيت أن يهُنَّ حين يراني، أو يرى في عينيَ
الجزع واللوعة.

^۱ يحفظك.

وكان صوتُ آخر ينبعث من بعض غرفات الدار منشداً:

إذا ما أراد الغزو لم تثن همة
حصانٌ^٢ عليها نظم دُرّ يزيّنها
نهته، فلما لم تر النهي عاقد
بكى فبكى مما شجاهاقطينها^٣

ووضع الفتى ما كان بين يديه، ورفع رأسه مُنْصِتاً، ودلفت الجدة الثكلى إلى حيث كانت أم نوار جالسة تُدَنِّدُ ذلك الشعر، فقالت لها عاتبة: عهدك بالغناء بعيد يا أم بشير، فهلا أشفقتِ اليوم على الصبي والصبية أن يسمعا غناءك هذا؟
قالت أم بشير ولم ترفع إلى العجوز عينين: لقد كان ذلك والله أحبُّ الشعر إلى عتبة حين يُزمع رحله!
قالت الجدة، وهي منصرفه قد ضاقت نفسها بما سمعت من جواب: فقد رحل عتبة، ولم يُعُدْ.
وسكن الصوت، فعاد الفتى يُنشد وهو يعالج أحماله:

وأشفقُ من وشكِ الفراق ...

وخفتُ إليه نوار معجلة قد سوت ثيابها، وجففت دموعاً في عينيها، ثم استقبلته قائلة، وقد اصطنعت الابتسام والمرح: ماذا سمعت من إنشادك يا عتبة؟ هلاً كان قوله لنفسك:

أشوقاً ولما تمض بي غير ليلةٍ فكيف إذا خب المطى بنا عشراً؟
قال، وقد مدَّ يدين إلى يدين، والتقت عينان بعينين: بالله أعيدي يا نوار؛ فقد وقفت على ما كان يهِجُّ في نفسي، ولا تلفظه شفتأي.

^٢ الحصان: المرأة المحسنة الشريفة.

^٣ القطين: الخدم والأهل.

واختاحت يداه في يديها، فدفعهما إلى كتفيها، ومال عليها بوجهه، فأفلت من بين يديه، وهي تقول مؤنّةً: وكنت حريًا أن تُنشد:

قومٌ إذا حاربوا شُدُّوا مَازِرْهُمْ دون النساء ولو باتت بأطهار

ووُثِّبَ إِلَى الدَّارِ وَخَلْفَتُهُ فِي الْفَنَاءِ مَبْسُوطًا لِلْيَدِينِ، قَدْ ذُهِلَ عَمَّا حَوْلَهُ مِنَ الزَّمَانِ
وَالْمَكَانِ وَالنَّاسِ، ثُمَّ تَرَمَى عَلَى بَعْضِ مَا ازْدَحَمَ فِي الْفَنَاءِ مِنَ الْمَتَاعِ، وَأَخْفَى وَجْهَهُ فِي
دَاحْتَنِهِ.

الناس جميعاً في شغلٍ بالتهيؤ لتلك الحملة العظيمة التي يُجهرُ لها مسلمة، كل ذي قوّة من شباب العرب يرجو أن يكون له شأن في هذه المعركة ...

إنَّ آباء أيوب الأنصارى يدعون ضيفانه إلى المأدبة العُظمى في رحاب قيسر. القُصّاص في مساجد الأمصار قد تأطَّرَ الناس حولهم حلقات حلقات، يستمعون إلى قصصهم مشوقين، يود كل منهم أن يطير إلى الميدان بجناحين ...

الشباب والكهول يُهِيئُون أنفسهم لرحلة طويلة المدى بعيدة الأمد، قد احتقبوا ما قدروا عليه من زادٍ وعتاد وكسوة تصلح للشتاء والصيف ...

نساء الأمراء والساسة ينفُضن الطيب والحلبي عن غدائهن يجعلنها في بيت المال أعطياتِ للجند ...

الزوجات والأخوات يغزلن وينسجن ويُخْبِزن ويُقدِّدن ليهين لأزواجهم وإخوتهن كسوة ثقيلة، وغذاء طيباً يدفع عنهم برد الشمال القارس ...

الأمهات يُصلِّين ويدعون ويصنعن لأولادهن الرُّقَى والتمائم.

الكوابع الحسنات — وغير الحسنات — قد خَطَ الدمع على وجنتهن خطوطاً لم تزل مبتلةً أبداً.

الصبيان والبنات في فرحٍ ومَسَرَّةٍ بما يرون حولهم من مظاهر النشاط، لا يكادون يدرُون بما يتتظرهم من أيام القلق والهم والوحشة ...

الأيام والأرامل يُبَكِّين أزواجهن، لأنَّ قد فقدنهم منذ هنِيَّات.

الشيوخ قد ردّهم ما يرون، وما يسمعون إلى الصّبا وذكرياته، فانطلقت ألسنتهم بالحديث عما خاضوا من المعارك المظفرة في الأيام الخالية، وما أبلوا في الجهاد، وما حصلوا من الغنائم، وما حازوا من السبابيا ...

البادية الرَّحْبة قد ازدحمت بالخلافِق، وانتشرت فيها خيام الجُند، فضجَّت وعَجَّت؛ ففي كل خيمة حديث بين اثنين أو بين جماعة، وما تزال أصوات الأغانِي تتناوَح بين المضارِب، تُعبِّر عن ألوان من الإشفاق والرهبة، أو من الشوق واللهمَة، أو من العزم والفتُوَّة. هذا فتى لم ينس آخر لياليه في الحاضرة، وينشد حرَّان الفؤاد:

بنفسي من لو مر بربُّ بنانه
على كبدي كانت شفاءً أنامله
ومَن هباني في كل شيء وهبته
فلا هو يعطيوني ولا أنا سائله

وذاك فتى آخر يستقبل أول أيام الفراق باللوعة، فيُغنى:

يطول اليوم لا ألقاك فيه قصيرٌ
ويوم نلتقي فيه قصيرٌ
وقالوا: لا يضرُوك نأي شهرٍ
فقلت لصاحبي: فما يضرُّ؟

وثلاث يتهيأً للغارة قبل إبان الغارة، فيُنشِّد:

إننا لتصبح أسيافُنا
إذا ما اصطبخن بيوم سُفوِكٍ
منابرُهُنَّ بطون الأكْفَ
وأغمادهُنَّ رءوسُ الْمَلُوكِ

ورابع قد خرج للغنيمة والتماس أسباب الخُفْض والدَّعَة، قد خَلَّفَ من أجل ذلك أهله وجيرانه، فيقول:

لا يمنعكَ خفض العيش في دَعَةٍ
نزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطانٍ
تلقي بكلٍ بلاِد إن حللت بها
أهلًا بأهلٍ وجيرانًا بجيiran

وآخر يجذبه هواه وتصطرب الهواجس في نفسه بين ما خلف من النعيم وما يستقبل من المشقة، فيجدم حباه^٤ ويمضي إلى ما اعتزم مُنشداً:

... جَدَّامُ حِيلِ الْهَوَى ماضٍ إِذَا جَعَلْتُ
هَوَاجِسُ الْهَمَّ بَعْدَ النَّوْمِ تَعْتَكِرُ
وَمَا تَجْهَمَنِي لَيْلٌ وَلَا بَلْدٌ
وَلَا تَكَاعِدُنِي عَنْ حَاجَتِي سَفَرٌ

والسفائن مُرسية في الشغور تتأنّب للإقلاء، عليها الجند والعتاد والمتأم والزاد، قد اختلطت فوقها الأحاديث، وتنوّعت الأماني، واصطربت العواطف؛ فعلى ظهر البحر كما في البايدية، مفارق حزان الفؤاد، وممشوق في أول أيام البعد، وثالث يهيء سيفه وترسه للدفاع والغارقة، ورابع يحلم بالغنيمة قبل أن يخوض غمار المعركة، وخامس وسادس، وفنون شتى من الخلق قد توزّعت نفوسيهم الهواجس، ولكن أماناتهم جميعاً تلتقي عند غاية واحدة؛ هي الظفر بالروم في المعركة واقتحام مدينة قيسر.

وأذن المؤذن بالرحيل؛ فتحرّكت الكتائب في البر، وأقلعت السفائن في البحر، وكانت قيادة الجيش لسلامة بن عبد الملك ...

وصحب الخليفة جيشه حتى بلغ أطراف الشام؛ فأقام ينتظر بمرج دابق – على عدّة مراحل من حلب – واستأنف الموكب سيره ...

^٤ يقطع علاقاته.

الفصل الرابع عشر

على شاطئ البرزخ

قال الفتى الرومی لصاحبہ، وہما جالسان علی رأس الحصن المشرف علی مضيق کلیبولي: هل علمت یا لوکاس مَا أَعْدَّ العرب من عُدَّة لحربنا فی البر والبحر؟
– ومن أین لی العلم بذلك یا موریس؟ وماذا یُجِدِی علیًّا أن أعلم، وإنی وإیاک هنا
فی وجه الغارة الأولى، ليس معنا قوّة تُغْنِي غناءً، أو تدفع بلاءً!
– لقد جاء العرب یا لوکاس فی ثمانمائة وألف سفينة، علی كل سفينة مائة جندي،
وزحفت علی البر قوّاتُ تقوّت الحصر؛ فهل یطمع قومنا فی النصر، وليس علی فم الخليج
إلا بضمُّ مئات من الجند فی بضعة حصون علی الشاطئین؟
– وإنهم یا موریس لعمالیق أشداء، وقد تحصّنوا من الموت بما لا أدری من
التمائم؛ فإن الرجل منهم لیخوض المعركة قد حطمَ غمد سيفه، وألقى تُرسه، فما یزال
یُخْلِی الطريق لنفسه بما یُجَنِّدُ من الأبطال حواليه حتی یبلغ حيث أراد، لا یعنیه حين
یبلغ أسلَمَتْ نفسه أم جاءه أجله حيث بلغ!
– وإنَّ لهم یا أخي – إلى ذلك – صیحاتٍ مُفزعَة، یهتفون فیها باسم ذلك الشیخ
الذی اتخدوا له قبراً تحت سور القدسینية منذ خمسين سنة، فما یزالون یَقْدُون إلی
قبره ذاك کلَّ صائفة یتبرَّکُون به ویعاهدونه عهداً ...
– قد كان ذلك القبر شؤماً علينا منذ ظُوا فیه شیخهم ذاك، فهم ما یزالون
یطرُّقوننا من يومئذ فیصيرون منا فی ذهابهم إلیه، وفي عودتهم منه، ولا أدری کیف لم
یهدم قیصرُ هذا القبر ویعَفِی أثره؛ حتی لا یظلَّ هدفاً یطئون بلادنا فی الطريق إلیه
ذهاباً وجیئَةً.

- قد هم بذلك قسطنطين بوغانات ثم أمسك؛ فقد جاءه الوعيد من ملك العرب أنه إن فعلها استباح العرب مثل ذلك في بلادهم، فلا يتكون لنا ثمة بيقة ولا صومعة إلا هدموها.

- ولكن ما ينالنا من غارة هؤلاء الطّرّاق أسوأ أثراً فينا مما أ وعد به ملك العرب، فقد انحرست النصرانية عن بلاد العرب، فلم يبق ثمة إلا فلول لا تساوي ما نتعرّض له من الشرّ ببقاء ذلك القبر!

- أفلست تعلم يا لوكاس أن دفين ذلك القبر من أصحاب نبيِّهم، وأنَّ له عندهم مقاماً قد يحمل على الشر الفظيع أن يناله أحدٌ بمهانة!

- وأيُّ شرّ أفظع مما ينالنا منهم يا موريس، صائفيون وشاتين؟
- أنت لا تعرف العرب يا لوكاس.

- وتعرفهم أنت يا موريس؟

- قد عرفتُ من أخبارهم ما لو عرفته لكففت!

- أتراهم مردَّةً يقذفون من أنفواهم اللهب المحرق؟ ويحرّكون العاصفة الجائحة؟
ويقتلون الأسوار بغير أجنحة؟

- أراك تسخر يا لوكاس! فهل سمعت عن بشرٍ يُفطرُ بحمل، ويتجدد بحمل،
ويتفگّه بمائة رُمانة، فإذا قام من قيلولته دعا بطعام العصر؟ ...

- بل أنت الذي يسخر يا موريس!

- ذاك والله ملكهم الذي سير إلينا هذه الجحافل بقيادة أخيه!^١
- ما أحراهم بأن يأكلونا إذن؟

- إنهم لا يأكلون لحوم الموتى!

- يموتون إذن تحت أسوار القسطنطينية جُوعاً؛ فليس هنا ما يكفيهم من الطعام
إذا أرادوا حصار المدينة.

- أرأيت الجاموس الأسود؟
- أيَّ جاموس؟

- نوع من الحيوان كالفيَّلة، لا يقطع السكين في جلدِه، يطاً بحافر، وينطح بقرن،
وينظر بعينين ليس فيهما بياض، وما يزال يجترُّ كالمعزَّى ...

^١ انظر الفصل الحادي عشر.

- وما أنا وذاك؟

- لقد جلبو منه آلافاً فسمّنوها في مُرْوِج الشام، ثم ساقوها معهم إلى الميدان.

- يريدون أن يحاربوا بالجاموس؟

- لست أمزح يا لوكاس!

- فماذا إذن؟

- يتّخذون من لحومها وألبانها طعاماً.

- ومن أين لهم هذا الجاموس؟

- جلبوه من الهند.

- وأين هم من الهند؟!

- إنَّ الهند قد صارت منذ بعيد - يا أبله - تحت حكم العرب.

- قد غَلَبَ العرب إذن يا موريis وملكو حاضرة قُسطنطين.

- أراك قد انهزمت من أول جولة يا لوكاس!

- وماذا تُجِدِي المقاومة؟

- لو كان العرب يحاربوننا بهذه الروح ما انتصروا قَطُّ في معركة.

- تريid أن أقاوم بلا رجاء؟

- نعم، حتى تموت.

- ويُكتَبُ في لوح على قبري: مات منتصرًا؟ ...

- ليس ذلك هو كل شيء؛ إنَّ الحياة المجيدة لا تُوهَبُ للجبناء.

- لست جباناً.

- معذرةً ... لم أقصد إساعتك.

- فما قصدت إذن؟

- إنَّ الذي يكافح عن حقه حتى يموت يهبُ حيَاةً لكثيرين من ورائه؛ لأنَّ كل طعنة تناهه كانت مُسَدَّدةً إلى واحدٍ من خلفه، فلقي عدة طعنات عن عدة أحياء، ومات موتهً واحدة، فقد ربَّحْ صفتُه إذن!

- وما النتيجة؟

- أراك لم تفهم بعد!

- ولا أظن أحداً يفهم أنَّ الموت صفةٌ رابحة.

- زِنْ حياتك بحياة الجماعة.

- وهل ترى الجماعة تستطيع أن ترْدَنِي إلى الحياة إذا فاصلت نفسي؟
- ولكنك باستماتتك تستطيع أن ترْدَّ الجماعة إلى الحياة!
- منطقٌ غير مفهوم!
- ولكنه بعض إيمان العرب!
- حمقى!
- ولكنهم انتصروا بحماقتهم هذه يا لوكاس، وذَلَّ الروم!

الفصل الخامس عشر

تميمة رومية!

لم تكن سبيكة قد نضجت نضج الأنثى، ولا رشدَ العقل يوم احتملها النعماً سبيّة، ولكنها إلى ذلك كانت مُدركةً واعية؛ فقد عِلمَتْ منذ اللحظة الأولى أنَّ ذلك آخرُ العهد بأهلها ووطنها، فلن تراهم، ولن يروها أبداً، أليست تعلم علم الناس مما يدور حولهم من أحاديث؛ أنَّ أختاً لها قد احتملها الغُزارة منذ بضع وعشرين سنة فذهبت ولم تَعُدْ، قد غاب أثرُها، وضعَ خبرها؛ فلا يكاد يذكرها أحد إلَّا أبوها المرزاً، وأمُّها الثكلى، وكانت أختها – إلى ذلك – فتاة ناضجة رشيدة تملك أسباب الحيلة!

بلى، وقد مضت بضع وعشرون سنة أخرى منذ احتملَتْ هي إلى بلاد العرب، فهل يذكرها اليوم أحدٌ من أهله؟ ... وإنها لتملك اليوم حُريتها، ولكنها لا تحاول أنْ تعود ولا تريده؛ فقد انقطع ما بينها وبين الماضي فلا تمتُّ إليه بحسب، إنها اليوم امرأة عربية مسلمة، تمتُّ إلى هذه الجماعة التي تعيش بينها بأسبابٍ كثيرة، وترتبطها إلى ما حولها – ومن حولها – عواطفٍ شتَّى، أمّا تلك التي احتملَتْ من بلادها منذ بضع وعشرين سنةً فكانت فتاة لا عربيةٌ ولا مسلمةٌ ولا أمّا ...

ذلك هو شعورها منذ سنين، فما بالها ما تزال – حيناً بعد حين – تفيء إلى ركنٍ من دارها فتفُقصُ خَتَمَ حقيقتها، فتنشر ما فيها من مُخلفات ذلك الماضي تتملأُه وتتشمُّه وتمسح به عينيها، ثم تبكي ما شاءت؟ ...

وما بالها ما تزال كلما سمعت ناعيَا ينْعِي حبيبَا إلى أهله رفرفت بجناح، وجاؤرت المكانَ والزمانَ إلى حيث كانت تعيش في بلدٍ بعيدٍ بين إخواتها وأخواتها، تريده أنْ تحسِّهم عدًّا وتنصفَّهم فردًا فردًا؟

وما بالها ما تزال تستطلع طلَعَ كل قادم من سفر، وكل عائد من غَزَاة، وكل
مُبِيرٍ في صائفة؟

وما بالها — مع ذلك — قد طابت نفْسًا بخروج ولدها لحرب الروم؟

ما بالها قد شهدت له أمضى سيفِ أبيه حَدًّا، وأوْمضها صفحَة؟

وما بالها قد رضيَت له نوار زوجًا يَمْهُرُها رأس بطريق من بطارقة الروم؟

ثم ما بالها قد دفعت إليه — حين مسِيره — تلك التمييمَة التي كانت قِلادة صدرها
صبيَّة، لِيحرِّزَها فُتُحْرِزَه ... وتلك الجوهرة التي كانت زينة مَفْرِقَها طفلة، ليذكُرَها بها
وتذكُرَه ...

أَبُوغَيِّي دفعت إليه ذيتك الأثرين، أم دفعتهما بلا وعي ولا إرادة؟

وكيف تُحرِز مسلماً تمييمَة روميًّا لا يؤمن بدين محمد؟

وكيف تذكُرَه إِيَّاهَا جوهرة لم يرها في مفرقها قط؟

أما تزال نفسها تُنازعُها إلى دينٍ ووطنٍ غير هذين الدين والوطن؟

وعبرَ على الطريق — وهي في خلوتها تلك إلى أشجانها — حادِينِشدَ:

تَعَزَّ بِصَبَرٍ لَا وَجْدَكَ لَا تَرَى
سنام الحِمَى أُخْرِي الْلِيالِي الغَوابِرِ
كَانَ فَوَادِي مِنْ تذكُرِي الْحِمَى
وَأَهْلِ الْحِمَى يَهْفُو بِهِ رِيش طَائِرِ

فهتفَت بلا وعي: رُدوه علىَّ!

ثم أخفَت وجهها في راحتِيها وأجهشت باكيَّة.

وكان عتبية في تلك اللحظة خالياً بنفسه كذلك في خيمَة من خيام الجُند، يُقْلِب بين
يديه قِلادة وجوهرة، ولكنه لا يذكر من أمر صاحبتهما شيئاً؛ فقد كان خياله مُفعماً
بصورة أخرى قد ملكت عليه حَسَّه ونفسَه، وفاضت معانيها شِعراً على لسانه ودموعاً
في عينيه ...

أَتُرى نوار تذكرة الساعة كما يذكرها؟ وهل يعود إليها كما أَمْلَت، قد حَصَّلَ لها
مَهْرًا وأدرك ثَأْرًا ووَفَّى بنذر، فيضع بين يديها تاج بطريق وسَلَبَه، ويسألها الوفاء بما
وعدت؟

ولم يجد عتبة جواباً سريعاً لسؤاله؛ فقد مثَّلَ بباب الخيمة في – تلك اللحظة – حرسيٌّ من حاشية مسلمة يدعوه إلى لقاء الأمير، وأعجله الطلبُ عن حفظ ما كان في يده من خَرَزَاتِ أَمْهَ، فمضى إلى لقاء الأمير وما تزال في يده ... وهشَّ الأمير للقائه، وبسط له وجهه ومجلسه، وغدا عليه يسأله عن حاله وخبره وأهله، وأقبل عليه الفتى يجيبه بما يسأل منبِسِطاً غير متَّكِّلَ، ويده تعُبُّ بما استند إليه من الطنافس المثمنة في مجلس الأمير، وأفلت شيءٌ كان في يده فتدحرج على البساط، فأدركه في حركةٍ سريعةٍ قبل أن يبعد ...

قال الأمير متلطفاً: ما هذا في يدك يا عتبة؟

– خَرَزة دفعتها إلى أمي، ترجو أن تكون لي تميمةً وخرزاً ...
ومدَّ إليه الأمير يدًا فحاز القلادة والجوهرة يُرُوزهما بأصابعه مسًا^۱ وبوجهه نظرًا
وشمًا، ثم دفعهما إلى الفتى وهو يقول في صوٍت ينْمُ على انفعال: أخْرِزُهما يا عتبة
واحرِص عليهم؛ فإنهمما بعض آثار أَمْ بَرَّة!

ثم أنغص الأمير رأسه وتزاحمت على عينيه صورٌ شَتَّى ...

ولم يطل بالفتى مجلسه، فنهض إلى خيمته والأمير يُشَيِّعُه بعينين فيهما إشراقٌ
وحُبٌ ورحمة!

^۱ يختبرهما بأصابعه.

الفصل السادس عشر

عرش يهتز ...

التقت قوات الغزو البرية والبحرية على جانبي مضيق كاليبولي، ثم لم يلبث الجُند أن وثبوا من شاطئ إلى شاطئ، فإذا هم تحت أسوار القسطنطينية، لم يلقوا كيداً، ولم يعترض سبيلاً لهم أحد، فحطّوا رحالهم في ذلك الوادي الأفْيَح، وأخذوا يقيمون المضارب وينصبون الخيام، ويعُدُّون لإقامة طويلة المدى، قد أقسموا لا يعودون إلى أهلِيهِم وديارِهِم إلا إذا فتحوها ووطئوا بساط قيسِر، وأذْنُوا في «أيا صوفيا» وأقاموا الصلاة ... ونصبَّت للأمير خيمةٌ من ديباج على شرف من الأرض، وبُسطَت فيها البُسطُ، وانتشرت الطناُفُس، ثم أقيمت مضارب الجنُد، حيث رسم الأمير ...

وقال مسلمة يخاطب جنده:

أما بعدَ حمدِ الله والصلة على نبيه، فإنَّا لم نقطع هذه البريَّة، ونتجشَّم
هولَ ذلك البحر من أجل غارةٍ نُغِيرُها، ثم نَتَوَبُ قد احتملناُ أسارى وسبايا،
وحصَّلَنا غنائمٍ وتركنا على أديمها صرَعَى وجَرَحَى من الروم، كما كُنَّا وكانوا
في كلٍّ صائفةٍ وشاتيةٍ؛ فقد كان ذلك كله تمهيداً لهذه الغارة العظيمَى؛
لتحطيم عرش قيسِر ودُكَّ معاقله، ونشر كلمة الله في بلاده، فلا معاد إلى
دياركم وأهليكم إلى أنْ يُفتحَ لكم، وإلا فاعتقدوها هجرةً إلى دار أبي أيوب لا
تبرحونها حتى يبعث الله الموتى.^١

^١ يعني أنهم إما أنْ يفتحوها أو يموتونا فتُجاور قبورهم قبر أبي أيوب.

الفتح أو الشهادة، لا غاية وراءهما، فهُيئوا أنفسكم لإحدى الغايتين، لا تُنارِع أحدَكُمْ نفسُه إلى أهله وزوجه وولده، أو يحنّ حنينَ النَّبِيِّ إلى أعطانها،^٢ فلا وطن لكم إلا ما أنت فيه، فاتَّخِذُوه مقاماً حتى يأذن الله بالفتح ...
ألا وإنَّ الروم قد حصَّنوا أسوارهم ومَلَسوها وطاولوا بها حتى لا مطمع لناقِبٍ أو متسلِّقٍ أو واشب؛ فلتَدْعُوهُم سُجَنَاء وراء أسوارهم هذه لا يدخل إليهم داخلٌ، ولا يخرج منهم خارِج، حتى ينفذ الزاد والعتاد، ويبلغ منهم الجَهَد، فيطلبوا السلامة ويلْفُعوا السلاح ويُفتحُ لكم.

ألا وإنَّ مُقامكم على هذا سيطول حتى ينفد ما عندهم من ذُخر؛ فلا يمسس أحدُ منكم طعاماً أتى به من هنالك، والتمسوا الرزق مما يليكم من هذه القرى الروميَّة، ودونكم الأرض فاحترثوا وابذرُوا وتمُرُوا، وقد جلبتُ لكم قُطعاً من الجاموس والإبل والضأن؛ للحرث واللبن واللحم ودفع الشتاء، ولا تَطُل إقامتكم في هذه الхиام حتى يفجأكم البردُ ويُسْدِّد الثلج عليكم أبوابها، فدونكم هذه الغابات فاقتطعوا من أشجارها، واتخذوها بيوتاً من خشبٍ تجعلون فيها متعاكماً وتأتون إليها، واحتقرُوا العيون واستنبطوا الآبار ترُوون منها وتَسْقُون الزرع والضرع ...
أيها العرب، إنَّ أظفر الطائفتين في هذه المعركة أصْبِرُهُما؛ فلا عليكم من طول المقام ما ضمِنْتُم الظفر في العاقبة.

أيها المهاجرون إلى الله، لقد خلَّفتُم طائعين دياركم وأهليكم وأزواجكم وأولادكم إلى مدينة أبي أيوب، فترَبَّصُوا في دار هجرتكم هذه بعدوكم وعدُّ الله حتى يأذن الله لكم أن تلقواه بيومٍ كيومِ بدر.

وتفرقَ جندُ العرب في الأرض الفيحاء على استدارة القوس من أسوار القسطنطينية، قد اتخذوا بيوتاً، وفلحوا أرضاً، واستنبطوا آباراً، واستنبتوا مراعي، وأنشئوا حظائر، واستوطنوا استيطاناً من لا يُفَكَّر في الرحيل!

^٢ النبِي: الإبل، أعطانها: مواطنها.

وكان غاراتهم ما تزال تتَّبَغُتُ الْقُرَى الرومية على الشاطئين فيصيرون مغامِن،
ويعودون إلى بيوتها ظافرين قد أضافوا إلى ما أَدْخَرُوا من الزاد والعتاد ذُخْرًا جديداً،
وزاد العدوُّ جهداً على جهداً.

ومضى عام وجيش مسلمة لم يَزَلْ يُحاِصِرُ القُسْطَنْطِينِيَّة، حتى جهَّذْتُ جهَّذاً
شديداً، وأوشكت أسواقها أن تُقْفَرَ من الطعام، وضاق أهلها بالحياة ...
وبلغت الحالُ في بلاد الروم من الفوضى والاختلال مبلغاً حملَ القيسِرَ أنسطاثيوس
على اعتزال الملك لينقطع للدعاء والعبادة راهباً في دير، وخلأ عرش القُسْطَنْطِينِيَّة من
قيصر، فراح الأمراء والبطارقة وقادة الجنُّد يتواشون كالضفدع حول العرش، يأمل كلُّ
منهم بلا كفاية أن يكون قيمراً ...

وكان إلَيْون المرعشى «الإيزوري» رأس الفتنة؛ وهو رجلٌ من غُثاء الناس^٣ ليس له
جذر يمُّتُ به، كان أبوه إسَاكافاً يصنع النعال؛ فنشأ كما ينشأ ابن كل إسَاكاف، ثم اتَّجَرَ
في الماشية فأثرى وجمع مالاً، ثم اصطنع كما يصطنع الأثرياء بطانةً وحاشية، ثم رأى
احتلال الأمر في الدولة، فحُبِّبَ إليه أن يكون قيمراً، فاتَّخَذَ كلَّ وسيلةٍ إلى ما يُحِبُّ ...
ولم يكن له مطعم في رضا قومه من الروم رضاءً يحملهم على أن يصعدوا به إلى
العرش، فصار له مطعمٌ في رضا العرب؛ فأوَّلَى إلى سليمان بن عبد الملك وأخيه مسلمة
يؤامرهما على تحطيم قوات الدفاع الرومية لتخَلُّصِ البلاد للعرب، وتخلص له رياستُ
الروم، فاستعانه سليمان ومسلمة على شرطِه، ووثق به مسلمة فأسلم إليه بعض الأمراء،
وبلغ الجهد بأهل القُسْطَنْطِينِيَّة ما بلغ، فاستعنوا البلغار والروس وأهل رُومية،
ولكن هؤلاء كانوا في شُغُلٍ بأنفسهم عن معونة غيرهم؛ وكان مسلمة قد خَلَّفَ على
جيش القُسْطَنْطِينِيَّة بعض قادته، ودار دَوْرَةً على رأس بعض فرق الجيش إلى ملك
البلغار فحطَّمَ مقاومته وبدَّأَ شمله، ثم آب ...

وأخذ الوهن يدبُّ في قوى الروم؛ فلم يجدوا بُدًّا من النزول على شرط العرب،
فبعثوا إلى مسلمة في وقف القتال، وفكَ الحصار على أن يَؤْدُوا إليه الجزية؛ ولكن
مسلمة أبي، فبعثوا إليه ثانيةً يطلبون أن يوْفِدُوا إليهم إلَيْون الروميَّ ليقاوضوه في شروط
التسليم؛ فأجابهم إلى ما طلبوا ...

^٣ من عامة الناس.

ما أجره هذا الرومي أن يهديه الله فيكون أخاً معيّناً وزيراً ناصحاً!
كذلك قال مسلمة لنفسه، وقد أوفد إليون إلى قومه ليقاوهم في شروط التسليم،
فيمعونة هذا الرومي يقرع مسلمة اليوم أبواب القدسية، ويوشك أن يدخلها غداً،
فيطأ بلاط قيصر، فيجلس على عرش قسطنطين، فيجهر بالأذان على أسوارها المنيعة،
فيؤمّ جنده في الصلاة بأيا صوفيا، فينشر كلمة الله من ثمة في الأرض الكبيرة، فيمضي
قدماً حتى يطأ رومية، ويجوس في بلاد إفريقيا، وينفذ إلى الأندلس من المشرق، ويقف
على شاطيء الأقيانوس الأخضر مثل موقف عقبة بن نافع منذ سنين ...
إنَّ في الروم لذوي أعراق طيبة، وإن كان آباءهم من ذوي المهنة.
ردَّ مسلمة هذه العبارة كذلك فيما بينه وبين نفسه، وكأنما ذكر في هذه اللحظة
أمه ورُدُّ ونسبها في بلاد الروم، فحنَّ عرقاً إلى عرق!

واسترسل إليون في محادثاته مع القوم، وطالت غيبته، واسترسل مسلمة في أوهامه،
وكان الجندي في مضاربهم، أو في بيوتهم يُدِيرُون بينهم أولئك من الحديث يتَّصلُ أكثرُه
من قريبٍ، أو من بعيد بهذه السفارة التي دعا إليها الروم، وخفَّ لها إليون، وهشَ لها
مسلمة.

قال ابن جُبَير العبسي مُغتَيطاً: أين نحن اليوم، وأين نكون غداً؟

قال ابن هُبَيرَة: وأين تكون إلا وراء مسلمة؟

قال العبسي: فذلك ما أردتُ يا ابن هبيرة!

- اسكت! فوالله ما تعلم ولا يعلم مسلمة ما يُخْبِئه - له ولكم - الغد!

- وتعلم أنت علم الغد يا ابن هبيرة، ولا يعلمه مسلمة؟

- قد كان له ذلك لو كان ابن حُرَّة.

هَبَّ عتبة بن النعمان واقفاً قد اخترط سيفه وهو يصيح: أمسك عليك يا ابن
هُبَيرَة، فإنه لأعرق نسباً، وأعلى أرومة من كل بني مروان، فلَا تكن أمه من عبس
ومخزوم وأمية فإنها إلى الذروة من بني الأصفرا!

قال ابن هبيرة ولم يتحلحل عن موضعه: هُونَ عليك يا ابن أخي؛ فإنك لتقفُ مني
موقعاً يستحي منه أبوك - غفر الله له - وما أردت أن أتنقص مسلمة، ولكنني أعيّبُ
عليه أن يرکن إلى رجلٍ من أهل الغدر والتفاق قد باع أمته للعدو، فما أجره أن يغدر
بنا كما غدر بقومه!

- وترى ذلك يغيب عن فطنة مسلمة؟

- إنَّ لِكُلِّ فَطِينٍ غفلاً تأتيه من قِبْلِ أبيه، أو من قِبْلِ أمه، قد تدَسَّستُ في العرق، وخلطت الدم، وقد كان عبد الملك حازماً أربيناً ... فذلك ما عنيتُ يا ابن النعمان.
- ومن أين لك أنَّ مسلمة قد غفل عما فطرت له؟
- لقد أتيته أحدهما عن ذاك، فإذا هو قد تخدىً وملاً بطنه ونام ... وجلستُ إليه أحدهما، فما أراه قد سمع شيئاً مما قلتُ أو دَرَى بي!
- أفلستَ تعيب عليه يا ابن هبيرة إلا أنه قد أكل ونام؟
- إنَّ الأحمق يا ابن أخي مَنْ يملاً بطنه من كُلِّ شئٍ يجده، وأحمقٌ منه من ينام والحوادث ترقبُه بعيونٍ يقظة!
- - - - -
- غدًا ترى عاقبة أمره وأمرك يا ابن هبيرة.
- إنْ كان وعيديَا يا ابن النعمان فقد والله جاوزَتْ قدرك، وإنْ كان أملاً تأملْه فإني والله لأرجو مثل ما ترجوه على حَذَرٍ وتخوْفٍ.
- - - - -
- وهمَ تحدرون؟
- تدبِّر ذلك الكلب إليون، فما أظنه الساعة إلَّا يؤمِّر الروم على الكيد لسلامة وقد ملاً مسلمة بطنه ونام!

ورجع إليون إلى مسلمة يعرض عليه ما انتهت إليه محادثاته، قال: إنَّ الروم أمةٌ محاربةٌ يا أمير منذ التاريخ البعيد، لم تضع سيفها قطًّا منذ كانت، ولا رضيَّت الدينية، وقد أداَ الله لكم منها فغلبتكم خلفاء قسطنطين على أرضهم وديارهم ورعاياهم في سائر فجاج الأرض، ثم جئتم تطلبون هذه الحاضرة فكأنَّ قد دانت لكم كما دانت المالك وأسلمت مفاتيحها، فقد بلغ منهم الجهد ما رأيتُ بعيني – وما لا أظنه قد غاب عن فطنة الأمير – فلو لا أنهم أهل مُصابِرَةٍ لأسلموا إليكم منذ بعيد، ولكن عيونهم ما تزال تطلُّ عليكم حيناً بعد حين فيرون ضحامة ما احتزنتم من الزاد والعتاد وما لا يزال يرددُ إليكم من ذلك؛ فيقولون لو لا أنكم ترون أجل الفتح بعيداً وأنَّ دونه مصائبٌ وأهواً لا أسرفتم فيما تجمعون من هذه الأقوات، وإنهم إلى ذلك ليخشون – لو أسلموا إليكم – أن يقع عليهم حيفٌ في المعاملة، كما يصفُ لهم بعض رواة الأخبار من فلولِ المنهزمين أمام جحافل العرب في الأمسكار المفتوحة.

- وبم يُرجِّفُ هؤلاء يا إليون؟

- يزعمون أنَّ العرب لم يدخلوا بلداً - عنَّةً أو صُلْحًا - إلا استرقوَ الرجال، واستبأوا النساء، وهتكوا الستور، واستولوا على النفايات، وأذلُوا السادة، واحتملوا كلَّ ما في البلد من قُوت وزاد، فلا يجد أهله ما يحفظ عليهم أرماقهم.

- وترانا كما يصفون يا إليون؟

- إنَّ العرب ما علمت لَاهُلُّ وفاءً وذِمَّةً وشرفَ ودينَ.

- فماذا يرون إذن؟ وماذا ترى أنت؟

- أرى الثمرة قد دانت وحان قطافها، ولكنكم إن تدخلوا القَسْطَنْطِينِيَّة بالقهر والغلبة لا تجدوا فيها من السلام والطمأنينة ما يحبُّ إليكم الإقامة، فهلا دخلتم أصدقاء قد أمنوا وأمنتُم وطابوا نفوساً وطبتم!

- وأين لنا ذلك؟

- أنَّ تَحَمِّلوهُم بَدِيًّا على اليقين بأنَّ المدينة طوعُ أيديكم، فتختفَّوْنَ من هذا الزاد الذي جمعتموه رُكاماً بعضاً فوق بعض يوهمُ من يراه أنَّكم على نية إقامة طويلة عجزاً عن اقتحام المدينة، فإنَّهم إن رأوا هذا الزاد قد أُزيل عن موضعه أيقنوا أنَّكم قد أزمعتم اقتحامَها، فتُخُورُ عزائمهم ويفتحون الأبواب.

وآخرَ أَيْهَا الْأَمْرِ: أنَّ يكون تخفُّفكُم من هذا الزاد باجئاً إلى اكتساب موَدَّتهم واطمئنانهم إليكم، فتهبُّوا لهم منه ما يدفع عنهم الجوع ويحفظ عليهم الرمق، فإنَّهم حقيقون بأن يحفظوا لكم هذه اليد فيشكروها لكم، فتدخلوا المدينة - حين تدخلونها - قد أمنوا وأمنتُم وطابت نفوسهم وطبتم!

- وأمْرُهُم على كُلِّ ذلك يا إليون؟

- ووافقوني على كُلِّ ما عرضتُ عليهم باسمك من شروط التسلیم، وأآية بيبرنا أن يُنبئهم أصحابُ الأخبار أنَّكم قد تخفَّفتُم من الأزواد أو جُدُّتُم عليهم ببعضها.

- لك ما اشترطت يا إليون، فاحملُ إليهم ما شئتَ ودَعْنِي وأصحابي نُعدُ العدةَ للنقلة إلى ما وراء هذه الأسوار!

الفصل السابع عشر

دسيسة العِرق ...

– والله لا يقع في مثل هذه الغفلة ابن حُرَّة!
– كذلك قال ابن هبيرة قبل أن تقع الواقعـة، ونرى أنفسنا في هذا القـفر لا زـاد لنا،
وقد أخذـتنا سـيوف الروم من كل جـانـب!
– ذلك الكلـب الغـادر إلـيـون ...
– بل قـل: ذلك الأـبلـه ابن وـردـ، لـقد خـدـعـه ذلك الكـافـر خـديـعـةً لو كان اـمـرأـاً لـعـيـبـ بهاـ!
– وـنـالـ بهاـ إلـيـون عـرـش قـسـطـنـطـينـ!
– وـنـلـناـ بهاـ ماـ نـلـناـ منـ الـهـوـانـ وـالـضـعـفـ وـالـمـذـلـةـ، وـماـ أـرـانـاـ غـداـ إـلاـ هـالـكـينـ جـوـعاـ
وـبـرـدـاـ فـيـ هـذـهـ الـقـفـرـةـ المـثـلـوـجـةـ!
– وـاـسـفـاـ! لـقـدـ كـانـ مـسـلـمـةـ – فـيـمـاـ أـرـىـ – أـسـدـ بـنـيـ مـرـوـانـ رـأـيـاـ وـأـخـبـرـهـ بـفـنـونـ
الـحـربـ!
– وـمـاـ هيـ الـحـربـ إـلـاـ السـيـاسـةـ وـالـتـدـبـيرـ وـنـصـبـ الـفـخـاخـ وـتـوـقـيـ المـهـاـكـ؟
– وـإـنـهـ لـكـذـلـكـ، لـوـلـاـ ماـ تـدـسـسـ إـلـيـهـ مـنـ أـمـمـ الـرـوـمـيـةـ، فـكـأـنـمـاـ حـنـ الـعـرـقـ إـلـيـ الـعـرـقـ
فـاستـنـامـ إـلـيـ وـعـدـ غـادـرـ.
– أـتـدـكـ حـينـ أـنـشـدـ عـبـدـ الـمـلـكـ بـيـنـ يـدـيـ مـسـلـمـةـ وـإـخـوـتـهـ فـيـ حـلـبـةـ السـبـاقـ ذاتـ غـدـوـةـ:

نهـيـكـمـ أـنـ تـحـمـلـواـ فـوقـ خـيلـكـمـ هـجـيـنـاـ^١

– نـعـمـ، وـقـدـ تـنـاقـلـهاـ النـاسـ يـوـمـئـنـ وـقـالـواـ: مـاـ أـنـصـفـ عـبـدـ الـمـلـكـ مـسـلـمـةـ!

^١ انظر بقية الأبيات الفصل الخامس.

- كأنما كان عبد الملك يرى يظهر الغيب ما نحن فيه اليوم!

- وقد أخذ سعّار الغيظ مما ناله، فلم يأذن بالرحيل وتسريح الجنود، لأنما خُليل إليه - بعد ما كان - أنه مستطيع في هذه الغزارة أن يفتحها!

- بجندٍ قد هزلوا من الجوع، وارتجموا من البرد، وأثخنوا من الرمي!

- قد أُبْرَدَ بريداً إلى سليمان بمرج دابق يطلب مددًا من زاد وعتاد.

- وحتى يبلغ البريد ويجيء المدد يصبرُ العرب على الجوع والبرد تحت هذه الأسوار التي لم تزل تُساقطُ عليهم التيران وترىش إليهم السهام؟

- أظنت أن نفتح القسطنطينية بلا جهد؟

- فقد بذلنا من الجهد ما لا قدرة عليه لبشير حتى دانت الثمرة، ثم أفلتها مسلمة
بحمقه!

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك ما يزال منذ عام وعام قبله مُرابِطًا بمرج دابق على الطريق إلى بلاد الروم، قد أقسم لا يبرحها إلى حاضرته حتى يأتيه بشير الفتح، أو يدركه الأجل ...

وكان البريد يتوالى عليه يوماً بعد يوم بما بلغ العربُ من أسباب النصر، وما نال الرومَ من الجهد والإعياء، حتى خُيلَ إليه أن ليس بيته وبين ما أراد إلا غلوة سهم، وأنه لولا حرص مسلمة على دماء المسلمين أن تُراق لاقتحمتها بخيله ورجله، ووطئ بساط قيسار منذ بعد ...

ثم جاء إليه النبأ بما آل إليه الأمر، وما بلغ الروم من العرب بالمكر والخدعية، فحَوْقَل واسترجع وامتلأت نفسه همّاً، ولكنه لم ينكص على عقيبه، وأصرّ على أن يبرّ قسمه ذاك، فحشد الحشود، وكتب الكتائب، وجمع الأزواب، وأعد العتاد، وسيّر ذلك كله إلى مسلمة ...

وكان الجوع والبرد قد أصرّا بالعرب ضرراً بليغاً، حتى التمسوا أقواتهم من ورق الشجر وعشب البرية ودواب البحر، ولو لا أنَّ تراب الأرض لا يُستساغ لسفوه سفَّا؛ ليردُّوا الجوع عن أنفسهم ويحفظوا أرماقهم!

وكانما شدت هذه الخيبة عزيمة مسلمة، فصابر ورابط مقاوماً كلَّ ما يكتنفه ويكتنف أصحابه من الشدة، فلم يُفك الحصار عن المدينة.

وكان أصحابه يموتون كل يوم مئات، صرعى الجوع والبرد منهم أكثر من صرعى السيف والسهام والنار الرومية^٢، ولكن مسلمة لم ينكل ... وما يزال أصحابه يطعونه، والموت يتخطّف إخوانهم من حولهم جماعاتٍ جماعاتٍ يبلغون الآلاف، والمدد الذي أرسله سليمان ما يزال في الطريق.

وكان سليمان — مما نال مسلمة — في هُم دائم بالليل والنهار، وزاده همًا لأنَّ ولده أيوب الذي كان يُرجيَّه لولاية عهده قد احتضره الموت شابًا في ريعانه، فبكى سليمان وقال: الآن لا يدعون أيوب ولا أباً أيوب!
ثم لم يلبث أن لزم فراشه ودبَّ إليه الموت.
وكان عهده — بعد ولده أيوب — إلى ابن عمِه عمر بن عبد العزيز بن مروان ...

وقال الخليفة عمر، وقد جلس في ديوانه: رُدوْا على الشام هذه الفلول المبعثرة في البر والبحر من جيش مسلمة، إنَّ لتلك المدينة موعدًا لم يَحن بعد، وإنِّي لأخاف أن يأتي الجوع والبرد عليهم جميعًا فت تكون جريرتها على رأسِ عمر!
وخبَّ البريد إلى مسلمة بالنبا، وسيقت إليه الركائب في البر والبحر؛ لتحمل من معه إلى الشام.

^٢ النار الرومية: قذائف من النفط تُلقى مشتعلة من فوق الأسوار على الجنود الذين يحاصرُون المدينة.

الفصل الثامن عشر

على حافة الموت

– أكذلك تكون عاقبتها؟

قالها مسلمة وأطرق، وقد امتلأ قلبُه غمًّا وحقدًا ومرارة؛ أما الغم فلهذه العاقبة التي انتهت إليها الغزوة العظمى التي كان يُهَيَّئُ لها منذ سنين؛ ليبلغ شأنًا لم يبلغ مثله واحدٌ منبني عبد الملك، وأما الحقد فعلهؤلاء الروم وقيصرهم ذاك الخسيس الذي أذله بالمكر والخدعية، وخذله حين أَمِنَ له، ووثيق من موَدَّته، وأما المرارة فلأنه ابن امرأة من هذه الروم الغادرة التي لا تحفظ عهداً، ولا تُفِي بذمة... لو كان له أن ينتسب إلى أمٍّ غيرها لأنكر أنها أمه، تلك التي باعدت بينه وبين العرش شاباً، وحطمت تاج العزّ على رأسه كهلاً، وتُوشِّكُ أن تجعل حديثه في هذه الغرَّة سُخرية الساخرين حتى يبلغ سن الموت.

ومدَّ يدًا إلى جيبه فأخرج جوهرةً وقلادةً، فتملاهما طويلاً ثم قذفهما إلى البحر، وهو يقول وقد غلبه الدمع: تميمة لم تحفظها صبيّة من السباء، ولم تُحرِّز ولدها كبيراً من الهزيمة!

ثم أطبق راحتيه على وجهه وبكي.

وثاب إلى نفسه بعد هُنِيَّات، فدعا حاجبه إليه وقال له: قدّم أُساري الروم إلى السيف.

وبُسْطَت الأنطاع،^١ وقام على رأس كل أسير حَرَسِيٌّ بسيفه، وأخذت الرعوس تتهاوى عن أجسادها، ومسلمة يشهد، قد اشتَقَّتْ نفسه مما تَجِد...

^١ الأنطاع: فرش تُبَسِّط لتقطع عليها رعوس المحكوم عليهم بالموت.

وقدّم إلى السيف شيخ حطمة، قد بلغ الثمانين أو قاربها، وهم الجلادون أن يرمي رأسه حين رفع الشيخ يده قائلاً: كف! إنَّ لي حديثاً إلى الأمير ...

وسيق الشیخ إلى حيث كان مسلمة، فقال: يا ولدي!

- اخرس! یَتِمْ ولدُك.

- هل لك في صفةٍ رابحة، فتبيني رأسي برجلين عربَّين؟

- رجلين عربين؟

- نعم، في الأسر عندي منذ سنين، ولعلهما من السادة، فإن شئت عفوت عنشيخ
حُطَّمة لا يحملُ سيفاً ولا يدفعُ غارة، واستنقذت أسييرَيْن من قومك.

جئ بهما۔

— فيسمح لي الأمير أن أذهب إلى أهلي فأعود بهما.

- تحتمل حتى تفر بدمك!

- ليس الغدر من طبعي!

- ولم يكن من طبع إلیون القيصر؟

– ذاك اين إسكاف لا يمت بعرق إلى أسرة نبيلة.

- وتمت أنت الى قسطنطين الأكبة؟

= لـسـ الـكـذـبـ منـ طـبعـ

= أميال خارجية في هذا المقام بما بين الخامس و السادس

- ۱۰ تغییرات

= اخْرِسْ دَاسْهَا حَزَّهُمَا

= ٢٠٠٣م العدد ٦٩٧ أذن أهداها الأستاذ عازم لاظهارها في قسمها شيئاً

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّمَا
كُفَّاً كُلُّ أَنْهَىٰ

- أخذ الشيخ يُقَلِّب نظره في وجوه الجُند، ثم أشار إلى فتى منهم: هذا يكفلني
أهلاً الأمير.

- تکفُّلہ ما عتیۃ؟

- قد كفأته -

- تبَعْ شَابَكَ بِهَرَمَه؟ إِنَّه لِخَادُوكَ عَنْ نَفْسِهِ!

قد کفالتہ۔

هـ مسلمة واقفاً، قد يان في وجهه الغض، ثم مضى إلى خدمته غير متلثٌ،

وأحاط العرب بصحابهم سألونه مؤذنين مشفقين: ما حملك على هذا يا عتبة؟

- شيخُ في ضائقَة، قد توَسَّمَ فيَ مروءَة، هل أَخْلِفُ ظنَّه؟
- ولكن الروم أهل غدرٍ يا عتبة!
- ما كان يجْمُلُ بي غيرها.
- وإذا لم يُعْدْ كفِيلك يا أَبْلَه؟
- يصْنَعُ الْأَمِيرُ فيَ أَمْرِي ما يَبْدُو له.
- ولكن الْأَمِيرُ مَغِيظٌ مُحْنَقٌ، قد اسْتَلَّ غَدْرُ الروم ما كان فيَ نَفْسِه من خَلَالِ العَفْوِ والرحمة.
- يقتُلني به إذن.
- وتبَيَّنَ رأسك بِرَأْسِ كافر؟
- قد كان ما لا سبِيلَ إِلَى الرَّجُوعِ فيه.

وتفرقَ الجُندُ عن صاحبِهم محزونين، وأوى عتبةً إلى خيمته، قد امتلأَتْ نفْسُهِ غمًا وضاقَ بكلِّ ما حوله، هذه أولَ غزَاة يغزوها، ولعلها آخرُ غزَاة، فإنَّ الموت يتربَّصُ به، وسيموتُ حين يموتُ لا شهيدًا في المعركة، ولا مبكِّيًّا عليه، وتترقبُ نوارٌ حتى يعودُ كلُّ الغزَاة، ولا يعودُ عتبة فتبكيه دهرًا ثم تسلو، وتبكيه أمه كذلك، ولكنها لا تسلو أبدًا، إنَّ الأمهات لا ينسين من يموتون من أبنائهن، قد علِمَ ذلك عن جدته الثكلى، إنها ما تزال تذكرُ عمه عتبة وأباه النعمانَ كأنما فقدتهما منذ قريب.

ما لهذه الخواطِر تترافقُ في رأسِه الساعَة؟ أميَّتْ هو إذن؟ فلماذا رميَ بنفْسِهِ في هذا المأزق؟ ولكنه لا يكاد يستشعرُ شيئاً من الندم لشيءٍ مما كان، فما كان له خيرَة، أكان يحملُ به أن يقول على ملأِ من الجنَد لذلِك الشَّيخ: دعني فلستُ من المروءة بحسبِ ظننت؟ وإنَّ في الأمر — إلى ذلك — احتمالاً آخر؟ أليس ممكناً أن يكون ذلك الشَّيخ صادقاً فيما وعد؟ فكيف يحولُ حُبُّ الحياة ولؤم الطبع دون إطلاقِ أسيِّرين مسلمَين؟ ... وارتَدَّ خاطرهُ إلى أمه وإلى صاحبِته؛ كيف يعود إلى نوارٍ ولم يَفِ لها بما وعدَ؟ يا لها من سخرية أليمة! إنه بدل أن يعود إليها برأْس بطريق قد قدمَ رأسه فداءً لرأْسِ شيخِ حُطَمَة، لا هو من البطارقة ولا من السوقَة، أكانت أمه تتوقعَ أن يصير إلى هذه الخاتمة حين حاولت أن ترده فعصاها؟ لقد وقعَ عتبة في شرًّاً أفطعَ مما كانت تتوقعُ أمهَ أن يكون!

ومدَّ يده إلى جيئه فأخرجَ جوهِرَةً وقلادةً فتملاَهما طويلاً، ثم بكى ... أتدفعُ هذه التميِّمةُ عنه شرًّاً؟ يا لهؤلاء الأمهات! ما أضعفُهنَّ قلوبًا وعقولاً!

ومَثَلَ بَيْبَابِ الْخِيمَةِ حَرَسِيُّ يَدْعُوهُ إِلَى لِقَاءِ الْأَمِيرِ، كَشَانِهِ ذَاتِ يَوْمٍ مِنْذِ عَامٍ وَبَعْضٍ عَامٌ، وَكَانَتِ الْجَوَهْرَةُ وَالْقِلَادَةُ فِي مَثَلِ مَكَانِهِمَا الْآنَ مِنْ يَدِهِ، وَلَكِنَّهُ الْيَوْمَ غَيْرُ غَافِلٍ عَنْهُمَا ...

- لأَيِّ أَمْرٍ يَدْعُونِي الْأَمِيرُ يَا حَرَسِي؟

- لَا عِلْمٌ لِي!

- أَفِي خِيمَتِهِ هُوَ أَمْ فِي الْمَيْدَانِ؟

- فِي خِيمَتِهِ.

- وَفِي خَلْوَةِ هُوَ أَمْ مَعَهُ أَحَدٌ؟

- لَا عِلْمٌ لِي.

- تُخَادِعُنِي عَنْ نَفْسِي يَا حَرَسِي!

- لَيْسَ لِي مَأْرِبٌ.

- فَحَدَّثْنِي إِذْنُ بِمَا تَعْرِفُ ...

- لَسْتُ أَعْرِفُ شَيْئًا.

- إِذْنُ فَهُوَ الْمَوْتُ؟

- لَا عِلْمٌ لِي.

- وَبِسِيفِكَ أَوْ بِسِيفِ غَيْرِكَ؟

- لَا سِيفٌ لِي.

- تَبَّا لَكَ.

- غَفَرَ اللَّهُ لَكَ.

وَجَالَتِ الدَّمْوعُ فِي عَيْنِي عَتِيقَةً تَأْتِرًا وَرِقَّةً، فَقَالَ وَأَنفَاسِهِ تَخْتَاجُ: سَامِحْنِي فِيمَا اعْتَدَيْتُ يَا صَاحِبِي.

ثُمَّ صَحْبُهُ مُسْتَسِلِّمًا، وَقَدْ ازْدَحَمَتْ فِي رَأْسِهِ صُورُ الْمَاضِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ...
وَكَانَ الشَّيْخُ الرَّوْمَيُّ فِي خِيمَةِ الْأَمِيرِ، وَقَدْ وَقَفَ إِلَى جَانِبِهِ عَرَبِيًّا كَهْلَانَ فِي زَيْ

مُنْكَرٍ ...

وَثَابَتْ نَفْسُ عَتِيقَةٍ حِينَ رَأَى غَرِيمَهُ؛ رُومَيُّ وَفِي بَذَمَتِهِ! قَدْ أَفْلَتْ رَأْسُ عَتِيقَةٍ إِذْنَ مِنْ سِيفِ الْجَلَادِ، وَأَفْلَتْ رَأْسُ الرَّوْمَيِّ الشَّيْخِ، هَذَانِ الْعَرَبِيَّانِ قَدْ وَهَبَا لِهِ الْحَيَاةُ، وَلَعِلَّهُ كَانَ يَسُوْمُهُمَا الْخَسْفُ فِي أَسْرِهِ، وَلَكِنَّهُمَا الْآنَ بِحِيثُ لَا يَمْلِكَانِ إِلَّا أَنْ يَفْتَدِيَا مِنَ الْمَوْتِ،
رَضِيَا أَوْ كَرِهَا ...

وأقبل الروميُّ الشِّيخ على عتبة يشكر له مِنْتَه، فخَجل الفتى؛ علامَ يشكِّره؟ لقد كفَّله مُكَرَّهًا ثمَّ لم يَسلِم بعْدَ من الندم على ما فعل ...
وكان الشِّيخ يلحظه بعينيهما إشفاقٌ وحبٌّ ورحمة، وقد وقف الأُسْيَران العَرَبِيَّان بينهما يشهداً ويسمعاً صامتين، وكان مسلمة عبدُ الْمَلِك في مجلسه القريب منهم يرى ويسمع صامتًا كذلك، ثمَّ نطق: أيها الشِّيخ، قد علِمنا ما حَمَلَ هذا الفتى العربي على كفالتك؛ فإنَّ العرب — أهل مروءةٍ ونجدة، فما حملك أنت على الرُّكُون إلىَّه دونَ من حوله من الجُنُد؟
—رأيت في وجهه مخايلَ نُبل.

— ولم تَرَ هذه المخايل في غيره من العرب؟
— ورأيتُ عاطفةً تدفعني إلىَّه، فكأنما سمعتُ صوتًا يُناديَنِي إليه.
— لأمرِ ما ...
— لأنَّ فيه ملامحَ من وجهِ ما زلتُ ألمِسَ مثَلَّه في الناس فلا أرى!
— وجهٌ عربيٌّ؟
— وجهٌ فتاةٌ روميَّة.
— فتاةٌ!
— ابنتي ...

— ما لنا ولابنتك يا شيخ؟
— استبهاها عربيٌّ في أبيدوس منذ بضع وعشرين سنة، ومضى بها ...
— من أبيدوس أنت يا شيخ؟
— بطريق أبيدوس ... البطريق قسطنطين.
— قسطنطين ...

واعتدل الأمير في مجلسه وشحب وجهه، ونالت صوته حُبسَةً فلم ينِطِق ...
وذُهِلَ الفتى ودار رأسه ... بعُضُّ هذا الذي يسمعُ قد سبقَ إلىَّه وهمه منذ لحظات،
أتكون أمه بنت هذا البطريق؟ ولكنها لم تعرِف بأنها روميَّة، ولم تُنْتَرِ أيضًا ... يا
للمفاجأة العجيبة! لقد وعد نوار أن يمهرها تاج بطريق رومي، وأن يُخدمها ابنته ...
أكان يعني أن يجعل رأس جده مهرَّ عروس؟ وأن يجعل في خدمتها أمَّه أو خالته؟ ...
وثقلَ الموقفُ على كلِّ من يرى ...

الأميرُ ضيقَ النفس، ولكنه لا يستطيع في مجلسه حِراكًا.

والشيخ يريد أن يمضي إلى خلوة يتحدث فيها إلى الفتى حديثاً ما.
والفتى مشوقٌ إلى حديث الشيخ، ولكن شفتيه قد انطبقتا، وجفَّ لعابه فلا
يستطيع لسانه أن يلفظ حرفاً ...

والعربِيَّانُ الأَسْيَارُان قد نالُ مِنْهُمَا الجُهُودُ، وَاشتَغَلَ الْفَكْرُ وَاللَّهَفَةُ إِلَى عِلْمٍ جَدِيدٍ
عَنْ أَهْلِ وَبِلْدِ لَمْ يَرِيَاهُمَا مِنْذْ سَنِينَ طَوِيلَة، وَلَمْ يَسْمَعَا عَنْ أَنْبَائِهِمَا ...
وَأَذْنَ الْأَمِيرِ لِلْمَجْلِسِ أَنْ يَنْفَضُّ لِيَخْلُو إِلَى نَفْسِهِ سَاعَةَ ...

وسيقُ العَرَبِيَّانُ إِلَى بَعْضِ مَضَارِبِ الْجُنْدِ لِيَصْبِيَا شَيْئًا مِنَ الرَّاحَةَ ...
وَتَبَعَّ عَتَيْبَةُ الْبَطْرِيقِ ذَاهِلًا، لَا يَكَادُ يَحْسُ أَنَّ رَجْلَيْهِ تَمَسَّانِ الْأَرْضِ!
وَرَغَبَ الشَّيخُ إِلَى الْفَتِيَّ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِ ضِيفًا فِي أَبِي دُوسِ يَوْمًا أَوْ أَيَّامًا، اعْتَرَافًا
بِجَمِيلِهِ، فَأَجَابَ الْفَتِيَّ دُعْوَتِهِ ...

وَتَبَنَّبَ عَتَيْبَةُ بَعْدَ غَفَلَةٍ إِلَى أَنَّ الْجَوْهَرَةَ وَالْقِلَادَةَ مَا تَزَالَانِ فِي يَدِهِ، فَرَفَعُوهُمَا إِلَى عَيْنِيهِ
كَرَّةً أُخْرَى يَتَمَلَّهُمَا، وَكَانَا فِي الطَّرِيقِ إِلَى أَبِي دُوسِ، وَبَصُرُّ الْبَطْرِيقِ بِالْجَوْهَرَةِ وَالْقِلَادَةِ
فِي يَدِ الْفَتِيَّ، فَنَدَّتْ مِنْ بَيْنِ شَفَتِهِ صِحَّةُ، وَارْتَاعَ الْفَتِيَّ حِينَ رَأَى الشَّيخَ يُطْبِقُ عَلَيْهِ،
وَأَصَابَعَهُ تَتَقَبَّضُ فِي لَحْمِهِ، وَهُوَ يَقُولُ فِي مَثَلِ صَوْتِ الْمُحْتَضَرِ: ذَاكَ وَاللهُ أَنْتَ يَا بُنَيَّ،
وَتَلَكَّ أَبْنَتِي!

وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ كُلُّهُ لِعَيْنِي الْفَتِيَّ ... وَاسْتَسْلَمَ لِلشَّيخِ مَسْلُوبُ الإِرَادَةِ، قَدْ مَحَا
هَذَا الْلَّقَاءَ مِنْ رَأْسِهِ صَفَحَاتٍ وَأَثْبَتَ صَفَحَاتٍ ...

وَأَوْيَ بِهِ الْبَطْرِيقِ إِلَى دَارِ أَنْيَقَةِ فِي أَبِي دُوسِ، ثُمَّ دَعَا أَهْلَهُ رَجُلًا رَجُلًا، وَامْرَأَةً امْرَأَةً
لِيَتَعَرَّفُوا إِلَى نَسَيِّبِهِمُ الْعَرَبِيُّ، وَمَثَّلَتْ بَيْنِ يَدِي عَتَيْبَةِ امْرَأَةً كَانَهَا سَبِيْكَةً، فِي مَفْرَقِهَا
جَوْهَرَةً، وَعَلَى صَدْرِهَا قِلَادَةً، فَوَثَبَ إِلَيْهَا يَرِيدُ أَنْ يَضْمِنَهَا إِلَيْهِ وَيُسِّنِدَ رَأْسَهُ إِلَى كَتْفِهَا،
وَهُوَ يَهْتَفُ ذَاهِلًا: أَمِي سَبِيْكَة!

قَالَ الشَّيخُ وَرَبَّتْ كَتْفَهُ: تَلَكَّ خَالِتَكَ يَا بُنَيَّ، تَوْءَمَةً لَامْكَ، وَمَا كَانَ اسْمُ أَمِكَ سَبِيْكَةَ
يَوْمَ ذَهَبَتْ، وَلَكِنِي أَوْثَرَ مِنْذِ الْيَوْمِ أَنْ يَكُونَ اسْمَهَا سَبِيْكَةَ ... لَيْتَ شَعْرِيَ كَيْفَ صَارَ
اسْمُ أَخْتَهَا «رُودِيَا» فِي بَيْتِ سَيِّدَهَا؟^٢
قَالَ الْفَتِيَّ: وَمَنْ تَكُونُ رُودِيَا هَذِهِ يَا أَبِي؟

^٢ «رُودِيَا» فِي الإِغْرِيقِيَّةِ الْقَدِيمَةِ: كَلْمَةٌ مَعْنَاهَا «وَرْدٌ».

- بنتُ أخرى، استبهاها الغزاة في غارة معاوية ...
- وغاب عنك خبرها من يومئذ؟
- وغاب عني خبرها من يومئذ!
- ولا أثر يدلُّ عليها؟
- جوهرة وقلادة كذلك.

وجاءت امرأة البطريق فضَّمت عتيبة إلى صدرها وهي تهتف: ابني! ابني!
وعرف عتيبة كثريين وكثيرات، كلهم من بنى الحال والحال، لو وافق أحداً منهم
قبل اليوم في المعركة لعله بسيفه راجياً عند الله الأجر ...
وأخذ جده البطريق يطوفُ به في حجرات الدار: هذه الدُّمَى كانت تلعبُ بها أمُّك
يا عتيبة ... وهذه السَّلَة كانت تجمع فيها الزهر ... وهذه الشجرة هي غرستها بيديها،
ولم تدق من ثمرتها شيئاً ... وهذا الثوب آخر ما خلعت قبل أن يذهب بها أبوك!
وكانت الدموع تحدِّرُ على خدي الشيخ فتُجَاوِبها دموع الفتى ...

واحتمل عتيبة ما احتمل من آثار أمّه، ومما أهدى إليه الشيخ من طرائف الروم، ثم
وَدَعَ أسرته هذه الجديدة وعاد إلى معسكته، يُشَيِّعُه عشراتٌ من بنى الأخوال والحالات ...
وكان الأمير يرقبُ مقدمه، فلم يك يؤذن بحضوره حتى دعاه إليه ...
- وأيقنتَ من صدق ذلك كله يا عتيبة؟
- ورأيتُ بعينيَّ من دلائل اليقين.
- وحدَّثك البطريق بخبره كله؟
- وحدَّثني بكل ما كان من قبل ومن بعد!
- وعرفتَ خَوْلَتَك فرداً فرداً؟
- وعرفتُ خَوْلَتِي جميعاً إلا فرداً ...
- من؟ ...
- خالتي رُودِيَا.

- نعم، فتاةُ أخرى استبهاها العرب في غزوة معاوية.
- وغاب عنه خبرها من يومئذ؟
- غاب عنه ...
- ولا أثر يدلُّ عليها؟

- جوهرةُ وقلادةٍ كهاتين.
- وماذا تنبئ عن خبرها جوهرةُ وقلادة؟
- مثلَ ما أنبأته جوهرةُ أمي وقلادتها.
- ولكنْ أملك ولدتك واستحفظتك جوهرتها وقلادتها!
- وتظن روديا لم تلد، ولم تستحِفْظ أحداً؟
- من يدرِّي؟
- وأسفًا!
- علام تأسف يا عتبة؟
- لقد رجوتُ — منذ عرفتُ — أن يكون لي في المسلمين حالةً آوي إلى مَبَرَّتها بعض أيامِي، وأن يكون لي من ولدها حُثُولةً أنتمي إليها! ...
- إنك — ما علمتُ — لذو وفاءٍ يا عتبة؛ فأنا لك في كلِّ ما أَمَلْتَ يا أخي.
- وأين أنا منك يا مولاي؟
- ابن أخي أَكَّدتُ الحادثَ نسبه.
- لا زال معروفك يُطْوِقُ عنقي يا مولاي.
- وأوشكت الدموع أن تنبع من عينيِّ الأمير، فهبَّ واقفًا ومال بوجهه ناحية، ونهض الفتى فاستأنذ منصِرًا إلى خيمته، وقد توَرَّعَتْهُ أشجانه.
- وارتمني بشبابه على فرشه مكدوَّن النفس، وحلَّق بالوهم في أجواءٍ بعيدة ... ولكنه لم يلبث أن انتبه من سرحته على صوت حرسِي يدعوه ثانيةً إلى لقاءِ الأمير، وكان أحد العربين الطليقين في مجلسِ الأمير، وقد أبدل ثياباً بثياب، وسوَّى شعره وأَحْفَى شاربه فبدأ في منظر آخر غير ما كان منذ قليل ...
- مولاي!
- أتعرفُ هذا العربيُّ يا عتبة؟
- أحد الرجالين اللذين كانوا ...
- نعم، فهلاً عرفتَ اسمه؟
- وما يكون اسمه؟
- عتبة ...
- قال الرجل مُتَمِّماً: عتبة بن عبيد الله الرَّقِّي.
- عمّي؟ أبو نوار؟

- مَن نوار؟ إنما أنا أبو بشير!
- نوار أخت بشير.
- ابنتي؟
- ابنة عمٌّي.
- فأنت ...
- عتبة بن النعمان.
- وماذا فعل النعمان؟
- مات ...
- وتحيرَت دمعتان في عيني الرجل، ولم يملِك الأمير جأسه فأرسل دمعه كذلك، وقال الفتى وجسده يرتعُد كله من الانفعال: و كنت في أسرِ الطريق يا عمَّ كلَّ هذه السنين؟
- نعم.
- وكانت ابنة الطريق في أسر النعمان!
- وهي!
- نعم، ولم يكن النعمان يدرِي ولم يكن الطريق ...
- وماذا لو علمًا ...؟
- لو علمًا لم تبق سبيكة في دار النعمان حتى تلِد له عتبة، ولم يبق عمِّي في أسرِ الطريق.
- فأنت ابنها إذن؟
- نعم.
- وجُدُّك الطريق؟
- أبو أمِّي.
- ربحْت صفة الطريق!

الفصل التاسع عشر

وفاء النذر

وعاد عتبة إلى الرقة مُتَقَلّاً بالغنائم، لم يكن معه رأس بطريق لمهر نوار؛ ولكن معه
أباها ...
ونَشَرَ على عيني أمه ما عاد به من طرائف الرحلة: هذه الدمية ... وهذه السلة ...
وهذا الثوب ...

- من أين لك هذا يا عتبة؟
- من أبيدوس.
- وما فعل أولئك القوم؟
- ضيَّفُوا ولدك فأكرموه وبِرُّوه.
- وعرفوا أمه؟
- وعرفهم ولدُها.
- وما فعل الله بابي؟
- ما زال يحمل السيف، ويلزم الثغر، ويتعَرَّض للشهادة!
- وأين لقيته؟
- بين السيف والنَّطْع!
- أسيرا ... يُقدَّم للقتل؟
- ولكنني فككت سراحه وحققت دمه.
- جُوزيت من ولد بَر.
- ذاك جزاء معروفك وبرِّك.
- ومن هذا الذي صَحِبَكَ إلى الدار؟ كأنني أعرفه!
- قد حَدَسْتُ ذلك ... إنه عمي عتبة.

- عِمَكْ عُتْبَةٌ؟ وَأَيْنَ لَقِيَتِهِ؟
- فِي أَبِيدُوس.
- قَدْ ذَكَرْتُهُ ... كَانَ أَسْيَرًا فِي دَارِ قُسْطَنْطِينَ.
- وَكُنْتِ تَعْرِفَنِي أَنَّهُ هَنَالِكَ؟
- لَمْ أَكُنْ أَعْرِفَ أَنَّهُ عُمُّكَ!
- وَلَمْ يَكُنْ أَبُوكَ يَعْرُفُ أَنَّكَ امْرَأَ أَخِيهِ.
- ثُمَّ عَرَفَ؟
- نَعَمْ ... بَعْدَ أَنْ افْتَرَقا.
- وَعْرَفَ أَنَّهُ أَبُو فَتَاتِكَ؟
- لَمْ أَنْبِئَهُ بَعْدَ ...
- وَتَأْمُلَ أَنْ تُنْبِئَهُ؟
- نَعَمْ، إِذَا خَرَجْنَا كَرَّةً أُخْرَى لِحَرْبِ الرُّومِ.
- وَتَطَيِّبُ نَفْسَكَ بِحَرْبِهِمْ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ فِيهِمْ خَوْلَتِكَ؟
- قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْذَ بَعِيدٍ.
- وَكَتَمْتَ عَنِّي؟
- بِرَّا بِكَ وَإِعْظَامًا لِأَمْوَاتِكَ؟

وكان الاحتفال بزواج عتبة ونوار حاشداً، قد ركب له مسلمة من دمشق إلى الرقة في موكب من مواكبها، فأفاض من بزه ولطائفه على العروسين الشابين وأهلיהם ما كان حديث المدينة، ولقي سبيكة فتحدث إليها طويلاً، لم تتحب منه إلا بنقاب شفيف تجول من ورائه عيناها ...

ثم أزمع السفر، فودعها وودع أهل الدار جمِيعاً، وهو يقول لعتبة: إنَّ بَيْنَنَا نَسْبَاً وصهراً، فاذكر عِمَكْ مسلمة كلما ضاق بك أمر ...

ثم ركب وركبت حاشيتها، وودعَتْ المدينهُ كَلَاهَا إِلَى حدود الbadية، وارتسمت في ذهنه يومئذ صورهُ لم تفارقه قط في سفرٍ ولا حضر، هي صورةُ سبيكة، أو لعلها صورة أمّه وَرَدَ، فلم يَكُنْ بَيْنَ الصورتين كَبِيرٌ فرق، ولكن شفتِيهِ لم تلفظا السرَّ الذي ضمَّ عليه أضلاعه حتى مات.

خاتمة

- مسجد الشيخ الصالح تحت أسوار القسطنطينية ...
- عين مسلمة ...
- خليج أبي أيوب ...
- ممر العرب ...

ذلك كل ما بقي ثمة من آثار الغزوة التي كانت سنة ٩٨ للهجرة! ومضى مائتان من السنين، ثم مائتان، ثم ثلاثة، وكان محمد بن مراد، محمد الفاتح ابن عثمان، سنة ٨٥٧هـ، فافتتح القسطنطينية وجعلها للمسلمين داراً، ولم تزل لل المسلمين داراً من يومئذ.^١

^١ انظر الفصل السابع.

